

في حضرة الرئيس

بقلم الاستاذ عبد المزين البشري

ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر . لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلاً عظيماً ما استطاع ، وهيئات لا مريء أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه ، فكان طالباً عظيماً ، وكان مدرهاً عظيماً ، وكان قاضياً عظيماً ، ثم تناهت إليه زعامة أمة فهو فيها ملء السهل والجبل

بحسبك أن تراه لتعرف أنه سعد ولو لم يوميء اليك أحد بأنه سعد ، وكيف يختلط عليك أمره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بأنه ، وإن كان من الناس ، إلا أنه أعظم الناس بسطة في العلم والجسم ، بسطة في العقل والحلم ، وعزم تزايل الجبال دون أن يتزلزل ، ويقين تتحول الأرض عن مدارها ولا يتحول ، ومنطق يصل في الجلى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيفها وعوايلها ، ويلطف في السمر حتى لتمثل أسراب السكواعب وسوست حليها وتضوعت منها غوايلها . . وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له في البيان وأمكنه من نواصي الحجة كما فسح لسعد وممكن لسعد . ولقد تتقدم لمباراته في الأمر تظن أنك قد بلغت منه الغاية ووقعت على الصميم وتمنعت منه بالحسن القوى ، فهاهو إلا أن يرسل عليك الحجة حتى ترى أنه ملك الرأي عليك من جميع أقطارك ، وأنت سرعان ما وقعت أسيراً في يديه تنقلب فيهما قلباً ، وهيئات لك الخلاص إلا بأن تنزل في أمرك على الاذعان والتسليم !

وإن أنس لا أنس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشاراً كان في محكمة الاستئناف ، معروفاً بشدة الجدل ، في مسألة فقهية ، وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار الى غيره ، حتى إذا ظن أنه تمكن في أفحوصه (١) ثار عليه بالحجة فوثب الى سواء ، وما زال به صدرأ من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من رأى الى رأى ، ويحوله من قول الى قول ، حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل حوار ولا جدل !

ولا أدري أ كان ذاك من سعد مجرد تهديد للرأى وتعقب لموطن الصواب ، أم أنه كان يتلاعب بالرجل تلعباً لينزله على معرفة قدره ، ففى نفس ذلك المستشار غرور وفي أنفه ورم ! أم هي الخيلة (٢) تبعثها في النفس شدة التمكن من النفس . وانه ليلد لها أحياناً ألا تتمتع بذلك الواقع

(١) الافحوص مجم القطاة وهو الموضع الذي تفتحص التراب عنه لتبيض فيه (٢) الخيلة : الكبر

الذي اطمأنتت به والحق الذي استرحت اليه : فما هو الا أن تصول بالحجة عليك حتى ترى أنك إنما كنت تقبض على الهواء ، وأن صرحك الذي أقتته تفرق عنك تفرق الهباء . فتتولى متخذلاً عن يقينك وقد ضربك الشك : أكنت مخدوعاً عن الواقع ؟ أم ان هذا الواقع دون قوة ساعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء ؟ . . . لا أدري يومها ماذا كانت اوبة الجبار . والله أعلم !

وسعد قد علت به السن وشاب رأسه . على انه ، بسط الله في عمره ، ما زال يمرح من فطنته القوية في أفق الفتوة وأمرع الشباب . ولو كتب لك الظفر ساعة بمجلس هذا الذي دوت الدنيا كلها بمجده لتعمت بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طبع في عذوبة مجلس . وحديث كأنه قطع الروض رف آسه ونسرينه . وتضوع وردة وبديهة كأنه يقرأ منها في كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب . ونادرة تشيع فيك الطرب ، وتهزك من اعجاب ومن عجب . إذ هو فيما يرسل من القول — في جده ومزاحه — لا يعدو ما ينبغي له من تحشم ووقار

وانه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يفرخ روعك ، ويفسح لك في جوانب القول لتقول . وانه ليباريك في منزلك ، ويدارجك في حديثك الى ان يرسلك على سحبتك ويسترسل معك ، حتى اذا اطمأنتت اليه وظننت أنك في مساجلة رجل مثلك ، خاتته عبقريته ، فوثب به ذهنه الى ما لا يتعلق به ذهنك ، فاذا أنت قد طرت كل مطير ، واذا الطبيعة تأتي برغمك ورغمة الا أن تشرك انك في حضرة سعد زغلول !

يا لله من هذا الرجل ! وانه ليعرض في الامر فيقول فيه مقلاً ، وانك لتقدر له بادية الرأي غاية ما تعاهد الناس من حجة ، واقصى ما تعارفوا من دليل ، فاذا هو قد وقع في تدليله على ما لم تقع عليه ظنون الناس ، وارتفع الى ما لم تتعلق به اذهانهم ، ففتح في المنطق فتحةً جديداً وأتى بما يهر ويروع . وكيف لسعد ألا يرتفع على مذهب حجة الناس وقد رفعه الله على الناس ؟

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بانه إنما يتحدث على آمال أمة ، فهو مهما بارى المجلس في فنون أحاديثه ، ومهما تدلى به السمر إلى تلك الاسباب الدائرة بين الناس ، يرفه بذلك عن نفسه وعن صحبه . يطفر الفينة بعد الفينة الى حديث الوطن فيشك فيه معنى جليلاً ، ثم يعود فيصيب ما شاء الله من حديث القوم . أعلمت ان سعداً لا يصلح الا للوطن ، وأن الوطن لا يصلح الا بسعد ؟ أريد ان أكتب عن سعد . ومن الغرور ان أظن بقلمي الوفاء بوصف سعد مهما تفرج له في جوانب البيان . فان البيان إنما يجري في غايته الى ما تعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك النفحات الالهية التي يرسلها الله تعالى في العصور الطوال ثنياً بعد ثنى ليقيل أهل الارض الزلة ويهديهم من الضلة فذلك ما تعجز عنه اللغى ويقصر من دونه البيان

وبعد فاذا أردت ان تصف للناس سعداً فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعاني ما لا يبلغه الكلام وان قدرته العقول وتعلقت به الافهام

الرحالة في الصحراء (١)

بقلم / احمد محمد حسنين بك

ان شق الصحراء شيء صعب ولشف مجاهلها شيء أصعب ، يعلم الرحالة هذا كله . فلتر اذن ما هو صانع ؟

ها هو ذا في شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل ، يفكر في النواحي الكثيرة التي تستلزم احتياجاته العدة في رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدني الذي نعيش فيه ، ويدون كل ما ينتهي اليه من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء ثم يأخذ في جمع ما يعوزه من زاد وشراب ومتاع ، وهو حاضر الذهن يقدر لكل شيء سببه ، فهو يحرص على أن تكون عدته جميعاً في نحو بسيط كثير النفع حين الحمل يجمع طعامه الضروري منه والكمالي لا يفوته أن يخترن حتى بضعة صناديق من الحلوى ، فذلك الكماليات الشبيهة لا يستطيع أن يجدها في الصحراء ، فاذا توافرت له كانت سبباً من أسباب رغبته ، يجمع عناصر فنه أدوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب ، تلكم العناصر العلمية التي يعتمد في نجاحه على متانة بنائها ودقة أدائها لوظائفها ، بعد الماء الكثير ينتقى الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولا سيما الدليل فهو مصباح القافلة . يتمتعن الخيام المريحة . ما أشد زهوهم بنخيمته الظرفية ، هي بيت العلم والقوة والفن ، يهيء أدوات الدفاع عن النفس وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى ومسدسات دقيقة الصنع ، وهذا رصاص يأكل الاحشاء ، وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تحرق الصخر ، يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التي يسهل استعمالها ويصدق أثرها ، ولا سيما ما يختص منها بأمراض المناطق الحارة وما يشكو منه أهل الصحراء

ثم مضى المحاضر يصف حالة الرحالة النفسية واعتداده بنفسه وافتخاره بعدته وتخليه ماستكون عليه رحلته من الابهة وقافلته من القوة ، وكيف أنه قد ملأ يده من كل ما يهيء النجاح لرحلته فتزود من المادة بخير زاد وأصلحه واستعان برائد بدوى أمين يقظ كالصقر خير باليد كالحمالة لا تخطيء الى صاحبها السبيل . أما الابل والرجال والخيام والطعام والشراب والآلات العلمية فهو قد أعد من ذلك كله أحسنه وأصلحه ثم حرص على ألا يفوته شيء من المظاهر حتى إنه أعد لنفسه لباساً بدوياً أنيقاً فتان المظهر خلاب المنظر ليطالع به رؤساء القبائل فيأتوا اليه ساجدين

(١) اخترناها من محاضرة القيت في المجمع المصري للثقافة العلمية

ثم قال : تلاحظون إذن في رحالتكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبته وتمكنت منه :
أولاً - إيمانه المطلق بقوة المادة . ثانياً - حرصه على أن يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع .
ثالثاً - ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون أن صاحبكم يحاول أن يفنى في سلطان المادة ، أو أن يفنى سلطان المادة فيه .
فالمادة شغله وهمه . مازج أثرها تفكيره . هفا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شيء فيه .
تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدأ مظهر
هذا الأثر جلياً في كل خطوة من خطواته وشارة من شاراته وكلمة من كلماته . هيمنت المادة على
ذاته المعنوية جميعاً . ما الصحراء سوى شيء مادي ، فلن يكون غزوها بغير سلاح مادي . ولقد اختار
لهذا الغزو سلاحاً ماضياً ، يغرى شكله بالوثوب ومقبضه بالظمن وحده بوجوب النصر المبين . ما أروع
أن يكون اذن فوق بسيط الرمل ! تم كل شيء . لقد أصبح رب اليد وسيد الصحراء

ومضى المحاضر يشرح زهو الرحالة بنفسه وعدته ويستخر من فشل الذين سبقوه ويصف
بداية الرحلة وكيف أخذ بجبال القافلة وهي تسير وفق المنهج الذي رسمه والسير هين والرمل لين
والصحراء مهاد والأبل تحب آمنة واحمالها في حرز أمين

ثم يصف الصحراء بأنها صبية طيبة . ظبية ألوف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جينها
من نور . النظرة اليها تسبي العينين . المشى عليها يأخذ بالالباب . حياتها موسيقى وشعر . سقاؤها
أغان وأحلام . الإقامة فيها كالإقامة في روضة غناء . راضية قنوع . لا ترد قاصداً . لا تنجيب ظناً .
ان صددت أقبلت . وان أقبلت لانت . ضعيفة ذات خفر . في صوتها حنان . في رقتها لذة . في ملاحظتها
فتنة . في اغرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هي الصحراء . فلئن لم يجتئ النجاح يسعى فلينتزع من مخبئه انتزاعاً
وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ويشتد شعوره بنفسه . وينمو يقينه في الصحراء . انه
يسير كل يوم بضع ساعات في جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتم رحالتنا مرحلته الأولى . وقد بدأ الآن يغشى « السريرة » والسريرة هي ذلك الشيء
المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر . وقدره غالباً من خمسة
الى ستة أيام الى اثني عشر يوماً أو تزيد . فخذ يأخذ الرحالة في رود هذه المنطقة الموحشة يأخذ في
اجتياز مرحلته الثانية . يقضى صاحبنا أول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل
سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو في ضحى هذا اليوم أشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت
صلته بالعالم الخارجي . واستهل الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذي لم يسبقه اليه أحد .
القافلة تسير هائلة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بسر الصحراء . فبين يديه مادة قوية غلبة

وتحت قدميه موكب مهين ذلول . اترون الآن اليه وهو يسخر ؟ أهذى هي اليد التي وصفوها بأنها طاغية ؟ أهذى هي الرمال التي زعموا انها آبار الموت ؟ أهذى هي الصحراء التي قالوا إنها شائكة السبل ؟ ما افككه طوافها انها مفان ومراقص ورياض أنس واهو وجمال

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . ما زال يمجّد نفسه حتى كأن هذا الفضاء على رجليه لا يكاد يسهه ، وكأن الأرض لا تحمل سواه . وقد اعتزم أن يسير اليوم كله على قدميه ليلقى بذلك على رجاله درسا محيذاً في الصبر والجلد . وما الى ذلك من صفات البطولة . غير أن مفاجأة لم يكن يحسب لها حساباً قد حولته من طريق الى طريق ، فعبثاً حاول أن يمشى في السير على قدميه فقد أوجعتهما النعل البدوية تلك النعل الحشنة التي لم يألفها من قبل . تسرب الى نفسه شيء من الضيق فقد أدمت النعل قدميه أو أصابتهما منها ثغور . ليتطأ إذن جملة . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين حتى يمل ظهر الجمل . ما أقبح المظلي ! أحب اليه أن يسير على قدميه الداميتين من أن يظل فوق جمل بطيء يمشى بسرعة أربعة كيلومترات في الساعة . يحبىء وقت الغداء فيكون غداؤه البلح الجاف كالخشف البالي . لا طهي اذن ولا شواء اذلا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم إنه من تقاليد القافلة أن ناسها جميعاً يأكلون صنفاً واحداً لا فرق بين سيد ومسود وكبير وصغير . البلح الجاف اذن هو طعامه السائغ الشهى ! يند جمل فيختل نظام القافلة وتضعب إعادتها الى سيرتها الاولى . تند جمال آخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فن صناديق تهشم الى زاد يتلف الى جهد كبير ينفق في لم الشعث ولكن صاحبنا لا ييأس ويعتبر ذلك مناوشة بسيطة من الصحراء ثم نفجاً ، ولكن ما خطبها ؟ أليست تفكك وحدة الركب وتعوق السير وتعطل أدوات الفن ؟ وهذا كله محتمل في سبيل العلى . . . يلقى الرحالة عصاه فتزأر به عاصفة من جديد ، عاصفة تملأ الفضاء ، زاحفة كأنما تريد أن تنسف الأرض ومن عليها . صوتها يشيب الولدان كأنه صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة في هذه المرة . تقوض خيامه ، تهشم بعض أدواته العزيزة التي يعرف بها أسرار السماء والأرض . أما الأبل فقد نفق أقواها وهو لا يدري لهذا سبيل . أما ماؤه فقد ذهب أكثره لامور لم تكن في الحسبان . أما دليله ، وليد البيد ابن الصحراء العليم بأسرارها الخبير بمسالكها مصباح القافلة ذراع الرحالة الآمن ، أما دليله هذا فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع . ليس أمامه سوى الفسيح الموحش الرمل . ليس أمامه علم يهديه ولا صوى يسترشد بها في طريقه . اذا قيل له : « أين نحن ؟ » هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس : « الله أعلم » ، واذا قيل له : « الى أين ؟ » أشاح بوجهه وقال في لهجة حيرى : « الله أعلم » فكاهة في الحق غير مناسبة . . . رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة تسقط على رأسه خيمته الظريفة فتحطمها وتكاد تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهي به الى فاجعة أليمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليه ويأتمرون به فيسوء المصير

ثم وصف الخطيب موقف الرحالة وكيف تمثل له الموت باستطاعته ، واطل الفضل فحطم
مطامعه وكيف هاب الموت وقد كان يحلو له أن يهب حياته للصحراء ، ثم كيف أصبح ذلك الدليل
الذي تنتزع منه حياته عنوة وقسراً ثم قال : ويحيل الرحالة بصره ليرى كيف وقع هذا وعدته
كاملة ورجاله حاضرون فلا يرى سبباً . بل يرى أن هذه العدة قد انقلبت ضده ، وكذب ظنه
وخاب تقديره ، فيجلس كاسف البال حسيماً معتقداً أن الصحراء قد بيتت له الغدر . ويتساءل أهذه
هى الصحراء التي كان يشغف بها حياً وبغنى فيها غراماً ! أين الفوز والنصر وأين المصالح وأقواس
النصر لقد انعكست آية المادة وهوى الرحالة من سمائه الى مستوى عيده مكرها لا بطلا . . . لقد
تغير شعوره وأخذ يحقد على الصحراء ويلعن اليوم الذي وطئها فيه قدماه . ذلك ان زاده المادى
قد أدخل به فجمد ذهنه وتعطل تفكيره

وهنا تنتهى المرحلة الثانية بعد أن يكون رحالتنا قد ذاق من العذاب أمره . غير ان للصحراء
أدباً تأخذ به روادها فتصقل نفوسهم وتحلو عقولهم وترتفع بارواحهم يوماً بعد يوم . وهذا الادب
أشبه بأدب الامم الروم بابنها العاق . وشدها أدبت الصحراء رحالتنا وأحسنّت تأديبه فبدأت تنظفه من
دنس المجتمع وتطهره من ادران الحياة وتنتزع من صدره وسوسة الشيطان ، بدأت تغسل عنه قذارة
الجسم ودنسه ، بدأت تلهم نفسه فلسفة صوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية

فأخذ يفكر فى أدب الصحراء بعد أن كان لا يفكر الا فى المادة وقوتها . فسكناً خلق اليوم خلقاً
جديداً . ولا غرو فقد أعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت وتلك الارادة الصادقة ، وعلم علم اليقين
بأن ما تكنه الصحراء من أهوال وأخطار ، وبضره الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر
الناس من ضر ومكروه ، إنما هذا كله رهن مشيئة الله . وها هو ذا يصدر فى عمله عن طبيعة هذا
الايمان الراسخ الشديد فهو ينفق أقصى ما يملك من جهد ، ويبدل غاية ما يستطيع من حيلة فى
سبيل المطلب الذى اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما فى يده ، ولكن امرهما
جميعاً فى يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، وأوحى اليه بوحيا الصادق . فأخذ
من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلاته على المضى ،
ويملاً نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفى ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضاً
وهكذا رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوى . وهكذا رويداً
رويداً تفتى المادة ، وبغنى الجسم ، ولا تبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهاى الرملى .
وتم تبدو له الصحراء فى صورة صبية وديعة فى سذاجتها رحمة ، فى انوثتها طهر ، فى ظرفها نسك
يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكاً صالحاً ، مداعبة
نقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها . وما
أجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات !

الملك فيصل

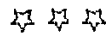
بقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر

وزير خارجيته السابق في سورية

أترك للهاشميين أن يندبوا الابن النبيل ، وللمثورة في الحجاز أن تبكي المجاهد الجليل ، وللجيش المنقذ أن يحجز لفقد القائد المحنك ، ولديار الشام أن تحشع لموت الناصر المدرب ، وللبلاط في بغداد أن يستكين لسيد الخلال ، وللعراق أن يهلع لمليكة الراحل . وأندب باسم العروبة خادماً أميناً من خدمة العروبة ، وبطلا كريماً من أبطالها

يكون الرجل وطناً ولا يكون مجاهداً ، ويكون وطناً ومجاهداً ولا يكون حكيماً . ولكن فيصل ابن الحسين جمع الثلاثة فكان وطناً ومجاهداً وحكيماً

المرء عظيم بقدر الغاية السامية التي يضعها نصب عينيه ، وعالم بقدر ما يستكشف لها من قوى يدفع بها أهل تلك الغاية الى الامام ، وعامل بقدر ما يضع النظر موضع العمل والخيال على محز التطبيق . وكان الملك الراحل عظيماً لانه وضع نصب عينيه انقاذ شعوب بحذافيرها ، وعالماً لانه استكشف ما فيها من قوة مضمونة وثيقة تربط بعضها ببعض ، وعاملاً لانه عرف كيف يضع تصوراته موضع التنفيذ



ثم ما هي الزعامة يا ترى ؟

الزعامة سلطة شخصية تجمع العدد الوافر من الخلق تحت لواء واحد لتأييد حق من الحقوق مادية كانت أم معنوية

فالزعيم في العلم هو الذي يقود العقول ليحررها من الجهل ويعطيها مكانها من بحبوحة البحث والزعيم في الدين هو الذي يقود النفوس لينقذها من السخافات ويظهرها في الاخلاق والاعراق

والزعيم في الوطنية هو الذي يقود الشعب لينجيه من برائن العبودية ولعنة الذل والصغار فهل كان فيصل زعيماً ؟

لقد كنا قبل هذه اللحظة القومية الحديثة متفرقين مشتتين ، حتى أصبحنا غرضاً نرمي بالقذائف

في بلادنا وتشرف علينا غارات الاضطهاد في عقر دارنا ، فلما لعل صوت فيصل قالت له الامة ليك وسعديك ، ثم اتته من كل فج عميق لتجتمع تحت اللواء الهاشمي الذي ارتفع هذه المرة لغاية قومية شاملة كما ارتفع منذ أربعة عشر قرنا لغاية إنسانية عالمية ، فسار وسار الخلق وراءه تحقيقا لما لا ينزعهم فيه منازع من حق في الحياة الحرة المستقلة

ومضت هذه الجموع حتى قطعت شوطا بعيداً تارة بالنفخ والشدة ، وأخرى باللين والهوادة إلى أن بلغت بعض الاقطار العربية مكانا محمداً . ففیصل كان زعيماً لانه قاد حركة برمتها في سيل النجاة وعمل عمل الجيابة لانقاذ شعب كامل من الامر ووصمة الاستعمار . وما أنخفض عينيه حتى كان لصوته هزة ترددت في العالم العربي الشاسع من المحيط الى المحيط . أفلا يستحق الرجل الذي يرفع عن قومه ذل العبودية أن يدعى في سجل أقدارها زعيمها الجبار ؟

☆☆☆

ان اسلوب فيصل في الحياة هو الاسلوب الذي يطلق عليه في الأدب كلمة « السهل الممتنع » فن يتبع سيرته في بيته وفي عشيرته وفي بلاطه ومع وزرائه وفي رحلاته وفي مقابلاته الداخلية والخارجية وأعماله الخاصة والعامة - لا يجد تقصراً ولا تعقداً ، وهو بعيد عن الحوشى والمهجور ، ولا محل في سيرته للمعازلة ، بل يسيل في طرق الحياة كما يسيل الماء الزلال في الساقية خالياً من الكدورات والشوائب ليستقي الزرع ويستدر الضرع . وقد يبدو العمل الواحد من أعماله بمفرده هينا لينا ليس فيه منار للدهشة أو الاستغراب ، ولكن متى انضمت أعماله بعضها الى بعض فهناك الاعجاز والسحر الحلال !

قال فيصل وهو يجود بنفسه على فراش الموت : « اننى أموت مرتاحاً » وقد صدق ، لان القائد الكبير المتخزن بالجراح في ساحة الوغى لا يشعر بنقص الموت ، فالغاية العظيمة التي يزجي الفياق بلوغها هي أكبر من أن تدع للالم الى فؤاده سيلاً

وقد مات فيصل وهو هائم بتحقيق خطة عالمية غرضها انقاذ ثمانين مليوناً من البشر يتكلمون لغة تدعى العربية ويعانون مرضاً يدعى الاستعمار . فاضطراب قلبه وضغط صدره وحشيرة الموت - كل ذلك كان أصغر من أن يلفت نظره عما وضع نصب عينيه من الهدف الاسمي

☆☆☆

الموت مصيبة تعظم في عين الصغير الذي لا هم له الا التمتع بملاذ الحياة البهيمية . ولكنه حادث طبيعي عند المشغول بالشؤون الكبرى . فكما تكون الولادة ظاهرة طبيعية لكل مولود كذلك الموت ظاهرة طبيعية للرجل الكبير

ليس حقاً أن كل من حمل على النعش وسار الى المقبرة على أعناق الرجال وتوارى في ظلمة

الليحد انقطع عمله . ان الذي ينقطع عمله هو الصعلوك في نفسه الفقير في عقله الذي أمضى حياته على سطح الأرض أنانيا بالمعنى الاعتيادي الحقير ، هو الذي يسمن على هزال اخوانه ، ويثرى على فقر بلاده ، ويرتقى على جماجم أبناء وطنه

ولكن فيصلا كان قويا في نفسه غنيا في عقله ، عاش لغيره لأنه هزل جسمه لسمن اخوانه وافتقر ماله لثروة بلاده وارتقى في سلم المجد ولكن على جماجم أعداء العروبة . لذلك ما توارى في ظلمة الليحد حتى هبت روحه من جديد تبعث الحياة في المبدأ الذي مات في سبيله . وما هذه المآتم التي تقام له في المشارق والمغارب الا شهادة الشعوب العربية بخادم العربية الامين . هذا هو الميت الحي وهذه هي أعمال الخالدين

وفي الصفحات الاولى من علم الطبيعيات أن القوة خالدة لا تتلاشى ، وإنما تتحول الى شكل آخر من الحركة والاهتزاز ، تتحول الى صوت أو حرارة أو نور أو كهرباء أو غير ذلك ولكنها لا تندثر . وكذلك القوة الروحية - فهي تغيب عن الابصار ولكنها لا تتوارى عن البصائر ، وهي تموت بالمعنى العامي ولكنها تتحول بالمعنى العلمي

ولئن انقطعت حياة فيصل المادية ولم تعد قائمة على الهواء والماء والغذاء فحياته المضمونة يقضى لن تموت ، لأنها تحولت الى اهتزازات روحية تتغلغل في صدور الملايين وعشرات الملايين من البشر . انها لقوة هائلة لأنها استطاعت أن تقرب شعوباً متناكرة بعضها من بعض . وانها لجذابة ساحرة لأنها جمعت بلدانا متناحية حول مركز واحد هو الحياة العربية المستقلة . انها لشمس من تلك الشمس الساطعة التي تسبح في فضاء اللانهاية وتتغلغل في أركان الازل هذا هو الخلود العلمي الذي يقيم لصاحبه تذكارة من الانسانية وينحت له تمثالا من الدهر

أسرُ إن كنت محموداً على خلق

ولا أسر بأي الملك محمود

ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها

وإنما هو بعد الموت جلود

ابو القلاء المعري

شلالات نياغرا

بقلم الاستاذ امير بقطر

كنت شاهدها صيفاً والسياح يفدون اليها من أطراف المعمورة والفنادق تموج بعشاق الطبيعة من أرباب المال وربات الجمال . فلم يبق في نزل غرفة إلا واكتظت . ولم يبق في حديقة زهرة تباع إلا وقطفت . ولم يشاهد الزائرون مقعداً تحت الأفياء الظليلة إلا وتبووه ولاشبرا من الأرض على ضفة نهر نياغرا إلا وتراحوا عليه

هنا شيخ رحل مع زوجته وأولاده من ولايات أمريكا الغربية الجنوبية ليقضى فصل الصيف بين الحمائل وأرائك الأشجار ، حيث يجرد في خري الشلالات موسيقى تذكره بأيام الصبي ، وفي سمات الصباح حلاوة يتشمس بها جسمه ، ويجري لها دم الشباب في عروقه . وهناك على الضفة الأخرى في فندق يطل على الشلالات ، ويدخل في حدود كندا ، سيد في مستقبل العمر ، يداعب شعر عروسه المتهدل على كتفها ، كأنه خيوط الشمس ، وقد جاء بها هرباً من الأصدقاء والأقارب والأحباب ، في نيويورك أو شيكاغو أو باريس أو لندره أو برلين ، ليقضيا شهر العسل في نياغرا صيفاً بعد أن كانا قضيا شهراً آخر في ميناهاوس على مقربة من أهرام الجيزة شتاء

وقد خيل لي في ذلك الحين أن تلك المنطقة وما يحيط بها ، من مدينة سيرا كيوز الى بلدة نياغرا في الولايات المتحدة الى بلدة اوترنتو في كندا ، ما غرست اشجارها ولا زرعت أزهارها ولا رسمت حدائقها ومنتزهاتها العمومية ، الا خدمة للعاشقين ووقفاً عليهم . وكأن الطبيعة ماتفجرت ينايعها في تلك البقعة الا لتكون ملتقى الأحباب وملجأ العشاق . فما كانت أستار الظلام تسبل على ضوء النهار حتى تنتشر تلك الحلائق على الأرض السندسية أزواجاً ، وقد لبثوا صامتين ساكنين . وشفاهم تهاوس وقلوبهم تتناجى . فالنسيم عليل ، والهواء بليل جاف ، وموسيقى الشلالات تريد نار الحب اشتعالا ، وتقع بلسا على الأفئدة الكثيرة والقلوب الكليمة الحفاقة

رأيت كل ذلك ، ورأيت الريال الأمريكي لا يكاد يظهر من حقبة النقود حتى يتبخر كالأثير وسمعت الكثيرين يقولون إن الشلالات أجمل شتاء منها صيفاً فقلت لأقفل راجعاً الى نيويورك ولنا الى نياغرا عودة . تركتها صباحاً وقد هبت الشمس من مرقدها وأرسلت من أشعتها الذهبية على صفيح الماء المتدفق ما تحول الى ألوف المجموعات من الألوان الفزحية . ففارقتها وفي القلب حسرة وشيعتها بنظرات من نافذة القطار ولسان حالي يقول : الى الملتقى . وقد تحققت الأحلام

ولما اقتربنا من الشلالات كان لدويها روعة في قلوبنا وقد خفت أصوات الطبيعة وخيم السكون وهدأت العاصفة الثلجية فحملت الرياح رشاشاً خفيفاً من ماء نياغرا فطافت على وجهه السكك الثقيلة . وما كادت تلمحها نسمة باردة حتى وقف الماء في مكانه واستحال جليداً . فآخذ زملائي يتزلقون بأحذيتهم المعتادة على أرض يخالها الناظر لوحاً من البلور النقي

وصلنا الآن الربوة العالية التي تطل على الشلال نفسه وهي ضالنتا المنشودة . وقفنا صفواً واحداً نستند إلى حاجز من الصخور والأخشاب ونظرنا إلى أسفل إلى هوة مخيفة سحيقة تسكدست في قاعها أحجار ذات أحجام ومرتفعات مختلفة . وعلى تلك الأحجار يتدفق ماء النهر بقوته الهائلة واتساعه العظيم فيسمع له زحجرة تصم الآذان وتولد في النفس رهبة وتنبئ بضآلة الإنسان وحقارته أمام قوى الطبيعة

اذ كر اننا وقفنا جميعاً جامدين كالصخر لانبدى حراكاً ، ننظر نارة الى الانهار العظيمة المتدفقة من ذاك العلو الشاهق الى الهوة العميقة ، ونارة إلى الضفة الأخرى حيث امتدت تلال أخرى بمحاذاة التلال التي كنا عليها واقفين ، وثالثة إلى أسفل حيث المياه فوق الأحجار تتقاتل وتغور وتتلاطم ثم تنحدر الى القاع وتباطأ في السير شيئاً فشيئاً الى أن تنتهي بين التلين كالانهار في الوديان

زادت الطبيعة سكونا وهدوءاً وزاد الماء زحجرة وزئيراً غير ان الشلالات لا يظهر جمالها الحقيقي الا في نور الكهرباء البديع . انتشرت الوف المصابيح على الجانبين ، بعضها على حدود كندا والآخر في حدود الولايات المتحدة ، وأضيئت كلها في وقت واحد فكانت تلك المفاجأة ابداع منظر رأيت في حياتي انتحينا جهة أخرى بعيدة عن المسكان الذي كنا فيه وأخذنا نمتع الطرف بالشلالات وقد تكسرت فيها أشعة الأضواء الجميلة المتعددة الألوان فظهر وسط الماء خيوط ذهبية متقدة وأخرى صفراء فاقعة وغيرها بنفسجية أو زرقاء مائلة الى السواد . وكان يتخلل تلك الخيوط المتذبذبة المدلاة من المرتفعات الشاهقة ماء زلال رقيق يتلألأ في الفضاء كأنه ذوب بلور في شفافه ولمعانه . وأنا كذلك واذا بفتاة تهمس في اذن جارها : إن شلالات نياغرا من ناحية كندا اجل منها من ناحية الولايات المتحدة . وما كادت تأتي على آخر عبارتها حتى صحننا جميعاً : هلموا الى كندا

هناك تغتسل الطبيعة ليلاً ونهاراً فلا تشوبها اتربة ولا رمال ولا غبار . فتارة تسقي ارضها ديمة المطر وطوراً يحمل اليها النسيم رذاذاً من الماء المتطير من الشلالات ، تارة تجرد الارض جافة ناعمة مصقولة وأخرى تلقاها كتلة واحدة من البلور النقي ، وفي لمح البصر يذوب البلور كالشمس وقت الاصيل فينحدر ماؤه الى وسط التل ويترك تحته طريقاً مرصوفاً شديد اللمعان

هناك عند مدخل الفندق وقفنا نشاهد فعل الضوء الكهربائي في مياه الشلالات وقد انعكس منها الى الجهة المقابلة الوان اخرى قزحية تفوق ما رأينا في الجهة الأخرى جمالا ولمعانا ، وانتشر من حولها نقط تفرق على الأشجار تفرق الطل على ورقات الورد

طفقت احترق كومات الثلج الجميلة حتى اقتربت من الشلال لالقي النظر الأخير . وليقف مهي القارىء قليلاً فأنا خارج المدينة والطبيعة ساكنة وقد وقفت ندف الثلج من السقوط ، والأشجار قد تناثرت أوراقها واكتست أعوادها وأغصانها وجذوعها بشوب أبيض قشيب ، وخيرير الماء يتعالى شيئاً فشيئاً . كلما اقتربت منه أنظر يمينا ويساراً وأماماً وخلفاً فلا أرى أنساً ولا جنأً ولا أشاهد سوى بياض ناصع فوق بياض

جميل ان نشاهد الشمس تبت بأشعتها الذهبية فتبسم الأشجار وترقص الأزهار وتفرح الطيور ، ولكن أجل منه ان تصمت الطبيعة فهي صامتة أجل منها ناطقة

هناك اتخذت الحاجز المطل على هوة الشلال السحيقة لى مقعداً ، فطوراً أشاهد ورائى النواح تذوب فتندفق مياهها وتملأ الأودية والسهول ، وطوراً أطيل النظر الى الشلال فيزداد في نظري جمالا فوق جماله ! وما أسرع التقلبات الجوية في هذه الأرجاء . سرعان ما اختفت ملكة النهار وهبت ريح شرقية باردة فتحول ماء الثلج الذائب جليداً

وبعث الشلال برشاش من مياهه الى الأشجار التي بجانبه فبللها . وكان الماء لا يكاد يستقر على الشجرة حتى تعصف الريح الباردة بها فتحوله جليداً ، وأخذت هذه العملية في الاستمرار حتى استحالت تلك الأشجار الى منظر من أجل المناظر الطبيعية ان لم تكن أجملها . يخيل اليك ان جذع الشجرة شمعة كبيرة بلورية وان غصونها المتفرعة شموع صغيرة شفافة وقد ظهرت أعوادها في بطونها كالفتيل في باطن الشمعة . كنت اكسر الأغصان وأضعها بين يدي فاذا هي كالبلور لونا وكالشموع شكلا ولا تمكث في يدي طويلا حتى تنكسب من حرارة الجسم ما يذيبها فتزول الشمعة ويبقى الفتيل

في بركة ...

تنصب فيها وفود الماء معجلة	كالخيل خارجة في جبل مجريها
كأنها الفضة البيضاء سائلة	من السبائك تجري من مجاريها
إذا النجوم تراءت في جوانبها	ليلا حسبت سماء ركبت فيها

المحتوى

وقفه في ظل تمثال

لرعمسيس الكبير

بقلم الأستاذ خليل مطران

ملأت من روعة قلبي وإنساني
من وجهك النضر في منحوت صوان
عنه ويمضي فما يكفيه من ثاب
هذا فتى مصر، « راعسيها الثاني »
من قوم حث ومن فرس ويونان
ما فاز خاتلها منها بامكان
بطشاً ومسدًى الأيادي غير منان
صُبحاً برأس من الجلود رنان
من الصفا غير معتاق ولا عان
هو الإباء رأى ضعفى فخياني
ولم أخله يناعيني فساجاني
طرفاهما وتراني منه عيان
محنطاً مدرجاً في سود أكفان
موت وأكبر به حياً إلى الآن
على التقادم لم يمسس بحدثان
ما جال في ظن فان أنه فان
خلوده بين أبصار وأذهان

يا صورةً شَبَّهَتْ صَخْرًا بِإِنْسَانٍ
لا وجه أبهى ولا أزهى بروقه
من المليك الذي تشي جلالته
هذا فتى النيل، ذو التاجين من قدم،
« سيزوستريس » الذي دان العتاة له
إن قصر الجيش أغزى الرأي أمكنة
« ممنون » مردي الأعداء غير محتشم
مستقبل الشمس عبر الشمس ما طلعت
أناظر أنت لما هم كيف خطا
هو المضاء تراءى فاستوى رجلاً
قاربت سدته العليا على وجل
تراه عيناى مغمضوا لهيبته
أرابني أننى قبلاً بصرت به
أكبر برمسيس ميتاً لن يلم به
تقوض الصرح فيما حوله ونجا
لولا تماثيله الأخرى محطمة
في مصر كم عزّ فرعون فما خلدوا

ولم يتم لها في غير مدته
ولم يسر بينها مثل سيرته
من منتهى النيل في أيامه اتسعت
ومن عتي الذرى في الطور عن كشب
ما تم من فضل إثراء وعمران
ساع إلى النصر لاساء ولا وان
إلى أعاليه في نوب وسودان
إلى قصي الرُّبى في أرض كنعان

في أرض كنعان . . . إلا أن عسكره
أعاد كراته فيها وعاد على
فما يرى نفعه وهو الضباب عسلا
حتى تهب به ريح فتترجمه
وتبرز القمم السماء ذاهبة
مفسولة بدماء الفجر طالعها
سفوحها حرة والهوام مطلقة
وموقع الذل ناء عن أعزتها
لكنما الخلف في الجارين صار إلى
وإن خيراً حليفاً من تروض به
تصافياً فصفاً جو العلى لها
وطالما كان ذاك الالف بينهما
في مبدأ الدهر والاقوام جاهلة
عصر بما ابتدع الفينيقي واخترعوا
وعصر مصر الذي فاقت روائعه
مما توالى على الوادى به حقب
حضارتان سما شأو النهى بهما
ما زال بعشهما يرجى إذا رجعت
أحس ما بأس شعب غير مدعان
أعقابه بعد إيغال وإمعان
تلك الرنى فدحاها دحو قيعان
عنها عشوراً بأذيال وأردان
في الأوج تحسبها أجزاء أعنان
من أدمع القطر در فوق مرجان
وكل كان بها بعد الاسى هاني
كموقع الظل عن هامات لبنان
حلف وأدنى إلى الصلح الأشدّان
صعباً وتولييه ودأ بعد عدوان
وطوعاً ما عصى مما يرومان
على صروف الليالى خير معوان
زها بمبتكرات العقل عصران
فيه له فضل سباق ومحسان
آى الحديثين من نخيم ومزدان
زينت حواشي الصفا منه بأفنان
أفادت كل تثقيف وعرفان
إلى خلائقها الأولى البلادان

وباتحادهما في الشأن من قديم ما زال يرتبط الاسنى من الشأن

يا محمد رمسيس كم أبقيت من عجب
أبغض به في العدى من هادم خنق
على الصروح كما والى الفتوح بلا
أكان منزله في المجد منزله
أم كان ما أدركت مصر على يده
تخير الخطة المثلى له ولها
ما زال بالقوم حتى صار بينهم
ورب سائمة بلهاء هائمة
يسومها كل خسف وهى صابرة
إلا . . . وقد بلغت في الخافقين به
إن بات في حجب بأت إلى نصب
فبجئت تحت تاج الملك مدميها
واليوم لو بعثت من قبرها كبدا
ما زال صخرًا على العهد الذى عهدت
مسخرًا قومه طرًا لخدمته
مُحَمَّد المجد دون القائمين به
مخالسًا ذمة العلياء مضطجعًا
بحيث أب وكل الفخر حصته
كم راح جمع فدى فردى وكم بذلت
لموقع الأمر فيهم كل تكمة

فيه ومسئلة عنه لخيران
وحبنا هو للتاريخ من بان
رفق بقاص ولا عطف على دان
لو رق قلباً لشيب أو لشبان
ذاك المقام الذي أزرى بكيوان
يعلو فتعلو به والخفض للشاني
إله جندي تحاييه وكهان
تشقى وتهواه في سر وإعلان
لاصبر عقل ولكن صبر إيمان
مكانة لم تكن منها بحسبان
يلوح منه لها معبودها الجانى
وقبّلت دمها فى المرمى القانى
لها كما خبرته منذ أزمان
بلا فؤاد وإن داجى بجثمان
وما بغى . رب سوء تحض إحسان
من شوس حرب وصناع وأعوان
من مبد عصمتها في مضجع الزاني
ولم يؤب غيره إلا بجرمان
في مشترى سيّد أرواح عبّدان
ومنفذ الامر فيهم كل نسيان

وَذُلٌّ مِنْ قَبْلِ الضَّيْرِ بِإِذْعَانٍ
 قَدْ أَسْمَوْهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتِيَانٍ
 نَحْلُوهُ مَدِينًا حَقٌّ دَيَانٍ
 رَسُوهُمْ مِنْذُ بَاتُوا رَهْنًا أَكْفَانٍ
 شُعْنًا مُنْكَرَةً فِي رَمْسٍ كَتْمَانٍ
 حَقٌّ الْعَزِيزِينَ مِنْ وَالٍ وَسُلْطَانٍ
 وَلَا اعْتِدَادَ بِأَمْلَاكٍ وَأَعْيَانٍ
 يَعْلَمُ بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانٍ
 مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانٍ
 يَنْجُو الْأَذْلَاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ
 مِنْ خَنْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مِيدَانٍ
 فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لَأَوْطَانٍ
 تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِإِحْدَانٍ
 فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَأَلْوَانٍ

كَلَّا وَعِزَّتِهِ فِيمَا طَغَى وَبَغَى
 نَحْمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ
 وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا عَنْ نَضْبُوا
 فِيمَ إِلَّا صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ
 وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ
 إِنْ يَجْهَلِ الشَّعْبُ فَالْحُكْمُ الْخَلِيقُ بِهِ
 أَوْ يَرْشِدِ الشَّعْبُ يُنْسِ الْأَمْرُ فِي يَدِهِ
 لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَاقُهَا رَسَبَتْ
 النَّارُ أَسْوَعُ وَرَدًّا فِي مَجَالِ عَلَى
 أَكْرَمُ بَذَى مَطْمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ
 يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَنْقَلِبُ
 بَعْضُ الطَّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ
 فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
 كَمْ فِي سَنَى الْكُوكَبِ الْوَهَاجِ مَهْلِكَةٌ

فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبِلْدَانٍ
 بِسَاقِبِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شَجْعَانٍ
 بِأَوَجِهِ بِأَدْيَاتِ الْبَشَرِ غُرَّانٍ
 إِلَى الرَّبُوعِ بِأَوْسَاقِ وَغُلْمَانٍ
 صَارَ الْكَبِيرُ الْمُعَلَّى بَيْنَ أُوثَانٍ
 وَالْيَوْمُ يَأْتِيهِ أَرْبَابُ بَقْرَبَانٍ
 هَلْ مِنْ نِظَامٍ بِلَا شَمْسٍ لَا كُؤَانٍ
 ضُرُوبُ نَحْتٍ وَتَصْوِيرٍ وَبَفِيَانٍ

لَمْ تَرْقَ فِي حَقْبَةِ مِصْرَ كَمَا رَقِيتَ
 لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مَمْتَنَعٍ
 أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضُوا
 وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيَسَ مَقْدَمِهِمْ
 فَبَعْدَ أَنْ صَالَ بَيْنَ الْمَالِكِينَ بِهِمْ
 بِالْأَمْسِ يَدْنِيهِ قَرَبَانُ لَأَلْهَةِ
 إِنْ يَغْدُ رَبَّهُمْ الْأَعْلَى فَلَا عَجَبٍ
 جَهَالَةً وَلَدَتْ فِيهَا قَرَائِحُهُمْ

مما لو استطلع الرائي بدائمه
 في كل منكشف كنزٍ ومستترٍ
 آياتٍ مقدرهً جلَّتْ دقاتها
 تتقدم العصر الخالي بها ولها
 لم يعتور مجدها مهدوم أروقه
 وراض كلُّ أبى هؤل بها حرِد
 وزاد روعها أنقاض آلهة
 سجد ما كان مسجوداً له ، عظه
 وربُّ رزءٍ بآثارٍ أشدُّ أسى
 والتاج أشجى إذا ما انقضَّ عن صنم

بيت عتيقٍ يرى فيه الكمال على
 حججه وبه من طول مدته
 ما زال والدهر يطويه وينشره
 في النقش منه لأهل الذكر قد كتبت
 تنزلت صوراً واستكملت سوراً
 شأقت بفتنتها الاقوام فاقتبسوا
 ومن حلاها استمدوا كلَّ نحلية

ماشابه اليوم من أعراض نقصان
 وفضل جدته للطرف حسنان
 يزهى جلالة رواقه الميدان
 آيات ذكرٍ بأحكام وتبيان
 في مصحفٍ من دعائم وجدان
 منها أصول حكومات وأديان
 بلا محاشاة إغريق ورومان

هذا هو المجد نفى والبقاء له
 تاريخ مصر ، ورمسيس فريده
 ما مثله في طروس الفخر من قدم
 على تعاقب أجيال وأزمان
 عقد من الدر منظوم بعثان
 طرس من الفخر أوعى كل عنوان

العهد الجديد

في حياة الإنسان العقلية

بقلم الاستاذ فريد وجدي

أخذته من الصفحة ١٠ وما بعدها من الجزء الاول من كتابي « على أطلال المذهب المادي » الذي
فرغته من تأليفه في سنة ١٩٢١
قلت هتب ١٠ ذكرته من اقرار العلماء بمعجزهم عن تحليل الظواهر السكونية :

كل هذه النظرات الصادقة ، المبينة على العلوم المحققة ، أيقظت العقل من غفلاته ، وكبحت من
رعوناته ، وكسرت من شره ادعائه ، وفلت من حدة خيالاته ، وأرته رأى العين ان ما علمه من
أسرار هذا الوجود ذرة لا تدرك في بحر لحي ، أو هباءة لا قدر لها في هذا الاطلاق العالني ، وان
وراء ما أدركه منه من هذا الجانب المادي عوالم لا تنتهي الى مدى تقف عنده ، وكائنات لا تصادف
في ترقبها تحملاً تلتزم حده

أدب عقلي بعيد الغور لم يتحل به الانسان في عهد من عهوده قبل هذا الدور الاخير . فقد كان
في كل طور من أطواره شديد الاعتداد بمدركاته ، عظيم الثقة بمحسوساته ، الى حد أنكر معه
ما وراء حسه وهو غافل عن انخداعه لقصوره ، واستهزأ بكل ما لا يتفق وعلمه وهو جاهل بمبلغ
غورره ، حتى من صرح من الناس بجهله فعل ذلك اما تواضعاً أو تصنعاً . أما اليوم فقد أدرك
الانسان جهله بعلم حسي ، وفهم قصوره بدليل مادي . وهذا الادب كان من أعظم آثاره عليه أن
غير وجهة نظره الى الوجود . فقد كان ينظر اليه من وجهة انه مجال مادي بحت . تكفي في سبر
غوره حواسه الخمس ، فكان الوجود في نظره محدوداً على لانهايته ، مفهوم ما في جملته . ولكنه اليوم
ينظر اليه من وجهة انه مجال غير محدود تعمل فيه قوى لا يحيط بها عقل . المادة وجه من وجوهها ،
وليست أصلاً لوجودها . والقوانين التي تؤثر عليها مظهر من مظاهر تلك القوى الكلية تعمل
في الكائنات على نظام يناسبها ، لا ان تلك القوانين هي كل ما في الوجود من العوامل المؤثرة

هذه الوجهة الجديدة من النظر باحالتها المادة الى قيمتها الحقيقية . حققت في عينه هذا الوجه
المحسوس للوجود ، ونبهته لما وراءه من الكون غير المشهود . فدبحته الى ذلك العالم ، ولسكن لا على
الاسلوب القديم من تسليم الخيال قيادة العلم ، بل على الاسلوب الجديد من المشاهدة والتجربة .

فبعد ان كان يقصر علمه الطبيعي على هذا المجال الضيق من عالم المادة الظاهرة ، ويعنى بالطبيعة هذه الباحة الحرجة من مدركات حواسه القاصرة ، أخذ يمد علمه الى ما بعد هذا العالم المحسوس ، ويوسع من مدى ادراكه للطبيعة نفسها ، فلم يحصرها في هذه الدائرة الضيقة

هذا تطور بعيد المدى أحدث من النتائج في كل فرع من فروع العلم ما غير وجه الفلسفة ، وقضى على قصر النظر قضاء لا قيام بعده . وقد عولنا في هذا الكتاب على ان نقف الناطقين بالفضاء على حقيقة هذا التطور العظيم الذي يعتبر بحق اكبر تطور سجله التاريخ لارتقاء الانسان من الوجهة الادبية ، دفعه لادراك ما وراء هذه الحجب المادية من العوامل العلوية

وانى باعلاني لهذا العهد الجديد في حياة الانسان العقلية ، أرمى لان أحدث في أرواح الشرقيين وعقولهم نفس الاثر الذي أحدثه في أرواح الغربيين وعقولهم

ولست أقصد من قولي العهد الجديد للعقل البشري ان هذا الترقى الواسع النطاق وصل الى كل درجات العقول . فان في الناس بل وفي العلماء أنفسهم من لا يبالون بغير ما ألفوه ولو سقطت السماء على الارض . ول هؤلاء أشباه ونظائر في كل بلد من بلاد العالم

ولقد تحطمت نظرية الانتخاب الطبيعي الذي بنى دارون عليها مذهبه ، وما يزال في الناس من يظنون انهم حلوا بها أسرار التطورات الحيوية ، الى درجة لم يبق معها ظل من شك . بل في الناس من لا يزالون يقولون بالجواهر الفرد الذي لا يقبل الانقسام . وهى النظرية التى وضعها ديموكريت ولوسيب منذ اكثر من الف سنة . ويخيل اليهم انهم أدركوا سر الوجود ادراكا لا يسمح لهم بالاطلاع على ما ينفيه من المباحث الجديدة

هذه الطائفة تقمصت من روح الجمود ما لا يتفق وروح كل باحث متثبت . وصبغت العلم بصبغة العجبار المتمرد . مع انه في الواقع معترف بنقصه ومتواضع في حكمه . واتخذت من بضعة الافتراضات التى اضطر اليها العلم للتعليل المؤقت ، ومن بضعة الوجوه العاملة في الكائنات ، ذريعة الى بناء فلسفة عرجاء خرقاء عمياء لملتأ وسداها قصر النظر والدعوى الباطلة والكلمات المقعرة

ادعوا انهم تحرروا من ربقة الايمان بالغيب . وما دروا انهم وضعوا في أعناقهم أغلالا من الايمان بالطبيعة ينوون بحملها ، وفي أرجلهم قيوداً يرسفون في سلاسلها . وزعموا انهم ترفعوا عن العامة في القول باله خلق العالم بقدرته وارادته . وما علموا انهم تسفلوا الى القول بالهية المادة ، ونخلوها بخيالاتهم من القوى والقدر ما لا يمكن تحقيقه بحجة ناهضة ، ولا يتأتى شهوده بتجربة حاسمة

وخيل اليهم انهم بلغوا من بعد النظر وسعة العقل الى ما يسمح لهم بأن يهزأوا بأصحاب العقائد الجامدة . وما فهموا انهم بوقوفهم في دائرة ما حصلوه من هذا القدر الناقص من العلم قد وضعوا على أعينهم حججاً من الغشاوات ، وعلى عقولهم كسفاً من الغباوات ، لا تسمح لهم برؤية شئ غير ما تخيلوه وجدوا عليه

عبقريه جيتي (١)

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

من العبقرين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة ، لأنه يرتقى الى اوجه في بعض أعماله فيأتى بخير ما عنده أو بكل ما عنده ، وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج الى تجربة له بمداه ولا نصيب في التجربة الجديدة إلا تكراراً لاجديد فيه

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقريته في كل جزء من كتاباته ، فبعضها لا يدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهى بك كل يوم الى جديد ، فلا غنى لك عن التجربة بعد التجربة لسر غورها والاحاطة بمداهما والحكم عليها في جميع احوالها

وجيتي من هؤلاء العبقرين الذين لا ينبىء قليلهم عن كثيرهم ، لأنه لم يجمع نفسه في قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لا يدل على كل موضوعاته والجزء الصغير لا يدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هي أصغر من الرجل في جميع أفكاره كما أن اليوم الواحد في غمار أيامه هو أصغر لاحالة من سنه الثمانين

تلك احدى الصعوبات التي تعوق عن التعريف بهذا العبقرى الكبير ، وصعوبة أخرى مثلها هي بساطته وقلة احتياله في تعبيره وتجافيه عن التزييق والتفخيم في سياقه ، فلا اصطناع ولا إيهام ولا زخرفة ، وإنما هي أفكار يلقيها اليك على هيئة كما جاءت على هيئة . وكلها سواء عنده في الحفاوة والخطر ، فلا الكبير عنده مستهول ولا الصغير مزدري ! وإنما هو المارد الجبار يحمل الصخرة كما يحمل الحصاة ويمشى بأثقل أحماله وأخفها في خطو وثيد وقوام قويم

وإذا كان بعض الكتاب يمشى الى غرضه كما يمشى بهلوان على الحبل ، أو كما يمشى اللاعب على يديه ، أو كما يمشى الراقص المترنح ، أو كما يمشى الكاهن الوقور لا ينظر الى يمنة ولا الى يسرة ، فجيتي ليس يعرف هذه المشى وليس يركب الى غرضه حبلاً ولا يترنح ولا يتكلف ، بل ينحلي اليك أحياناً من قلة النصب في حركته أنه يمشى الى غير غرض كما يمشى المريض في ساعة فراغه . فإذا أفضيت معه الى غايته فقد تعب وقد تنكر المسعى ، ولكنك تشعر أنك كنت تمشى مع دليل أمين ولم تكن تتبختر مع رقاص أو تقفز مع بهلوان ! وأنت بعد ومذهبك في حركات الاقدام : فالجارى على الحبل ابرع ولا ريب في فنون هذه الحركات من السالك في الطريق كما يسلك سائر الخلق ، ولكنه

(١) عن كتاب « تذكاري جيتي »

بهلوان وليس كل انسان بهلوان ؛ ويلعب والناس لا يتعلمون المشى ليلعبوا على الجبال !
وكلمة واحدة - مع هذا - تسمعها من جيتى تنبئك أنه قد وصل الى مدى لا يصل اليه
الكثيرون . ولا يلزم أن تكون هذه الكلمة رنانة ولا موشاة ولا صاحبة ولا أنيقة ، فقد تنبئك
نبأها الصحيح ولا حظ لها من رنين أو وثنى أو صخب أو اناقة

يحدثك رجل عن القاهرة ساعات ، فيسبق الى وهمك أنه سكنها وجاس خلالها وأطال المقام
فيها ، ثم ما هي إلا كلمة يزل بها لسانه حتى تعلم أن ما سمعت بحذافيره إن هو الا وصف ناقل
لا وصف شاهد ، وان حديث صاحبنا عن القاهرة إن هو إلا حديث قارىء أو متلقف من الأقواء
ويقول لك غيره كلمة واحدة عن القاهرة لاتستغرق الثواني فضلا عن الساعات المتواليات !
فتجزم جزم اليقين أنها كلمة العارف الذى زار وأقام وأطال المقام . فهل يلزم أن تكون فى هذه
الكلمة بلاغة خارقة أو نبرة متكلفة أو كناية ملفوفة ؟ كلا بل لا يلزم حتى أن تكون صحيحة كل
الصحة فى معناها . إذ هناك الخطأ الذى لا يخطئه إلا من شهد واختبر ، وهناك الخطأ الذى يقع فيه
الانسان لقلة الرؤية والاختبار . بل هناك الخطأ الذى هو أدل على المشاهدة من الصواب . فالشرط
الوحيد اذن فى تلك الكلمة أن يقولها القائل بعد رؤية ومعرفة ، وفى هذا الشرط وحده قيمتها
التي تربي على قيمة الاخبار المسببة يرويها لك من لم ير ولم يعرف . فأنت حين تنوى أن تذهب الى
القاهرة لا تذهب اليها مع من تلا عليك تلك الاخبار وبسط لك تلك المرويات ، وإنما تذهب اليها
مع من نبس بالكلمة الموجزة ذات الدلالة وان لم يكن على صواب

إن كلمات جيتى عن عالم الحقيقة لهى من طراز هذه الكلمة التي لاطنين فيها ولا كلفة . فاذا
سمعتها قلت : « أجل ! » هذه كلمة ناظر وعارف ، هذه كلمة السر التي يصطاحون عليها فى ذلك
المكان ، هذه « هي الاسرار المكشوفة لكل انسان ولا يكاد يراها انسان » كما قال

فن شاء أن يستدل على عبقرى كهذا بكلامه فليترث كثيراً ولا يقنع بالنموذج اليسير . فكل
فكرة هنا أصغر من المفكر ، وكل ثمرة هنا ورامها شجرة كبيرة ووراء الشجرة حديقة أكبر او قد
تدل الثمرة على شجرة واحدة حملتها . أما الحديقة فلا تدل عليها إلا ثمرات من عدة أشجار
نعم نحن حيال حديقة عامرة لا شجرة واحدة : نحن حيال شاعر وحكيم ومصور وعارف
بالموسيقى ووزير وباحث فى النبات والتشريح وطبقات الارض والنور

وفى كل علم من هذه العلوم كان لبحثه أثر ولرأيه قيمة ، وفى النبات اهتدى الى نظرية «التحور»
ورد اجزاء الشجرة المختلفة الى جزئين فى أساس التكوين . وراقب النمو المطرد والنمو المعكوس
وغيرهما من ضروب الطوارىء على حياة النبات . والتفت الى أثر العصير الغذائى الكثيف والعصير
الغذائى الملطف فى اختلاف الجنود والاوراق والازهار

وفى التشريح اهتدى الى العظمة الوسطى فى الفك الاعلى التي تنبت فيها القواطع . وكان المظنون

انهما لا توجد إلا في الحيوان . ورجع بتركيب الدماغ الى الفقار في الحيوان والانسان ، فكان في تقريراته هذه في علمي النبات والتشريح رائداً لمذهب التطور وطلبة من طلائع العلم الحديث أما في طبقات الارض فقد كان له رأى محترم في تركيب الحجارة المحيية والمعادن . وكان مصرأ على مناقضة نيوتن في تحليل الالوان يأتي كل الالباء أن يرتاب في بساطة النور ، أو يقبل التحليل القائل بتركيبه من عدة ألوان ، وأما اللون عنده مزيج من النور والظلام : يكشر فيه قسط النور ويقل قسط الظلام فهو اللون الاصفر . ويكشر فيه قسط الظلام ويقل قسط النور فهو اللون الازرق . ومن الاصفر والازرق يتولد الاخضر . ومن هذه الالوان تتولد سائر الالوان . وكلما قارب اللون الظلام كان أثره في النفس الى الحزن ، وكلما قارب النور كان أثره الى البهجة والانشراح

وقد أعرض علماء الطبيعة عن هذا الرأى ولم يأخذ به إلا نفر من غير الاختصاصيين . ولكنه على كل حال رأى لا يستحق الأزدراء .. وقد عرف له فضله علماء عصره وما بعده فيما عدا هذا فقال كاروس : « اتنا إذا رجعنا الى اقصى ما نستطيع في تاريخ الجهود التي قام بها الباحثون لادراك فلسفة ما لتركيب الدماغ وجدنا أن الفكرة الأولى عن محور أشكال العظم وردها جميعاً الى شكل واحد ، إنما هي فكرة يرجع فضلها الى حيتي » . وقال سانت هيلير : « لعله لم يصدر من عشر سنوات كتاب واحد في علم وصف الاعضاء أو علم النبات خلو من وسم هذا الكاتب المشهور »

وقال هلمهولتز : « ان جهود علماء النبات وعلماء الحيوان لم ترد على أن تجمع المواد والملاحظات حتى تعلموا كيف يرتبونها على أنماط يتبين منها التسلسل ووحددة النسق . وهنا وجد عقل شاعرنا الكبير مجالاً بوائمه وكان الوقت مؤاتياً له والمواد المجمعة في علم النبات وعلم التحليل المقارن كافية للاستعراض الواضح . فادخل في العلم فكرتين هاديتين تحفلان بالثمار حيث كان معاصروه يهيمون على غير هدى أو يقنعون بتسجيل الوقائع اليباسة »

ونحن لو قصرنا النظر على كتبه في الادب لاتسع أمام أعيننا أفق يتراعى في كل جانب . فما من خاطرة جالت في عقل انسان إلا كان لها مجال في عقله ، وكان له فيها رأى العارف المختبر إن لم يكن له فيها رأى المصيب المعصوم

ومعظم أخطائه هي أخطاء النظر المستريح الى جزء واحد ، لا أخطاء العاجز عن التأمل والاستبانة . أو هي أخطاء السائر الذي لم يبلغ أمدّه ولا يزال في طريقه ، لا أخطاء المحجوب عن الحقيقة بعيداً وقريباً . وما شئت بعد هذا من رأى نافذ في الأخلاق والعقائد والاجتماع وسرائر النفس والتاريخ والفن والامم والرجال : يفهم ما حوله ويشعر به ويستمرئه كأنه يتحفز لعمل له أوقاته ومحاولاته . ثم يلقي بالرأى كأنه يتنفس أو يؤدي وظيفة من وظائف حياته له بأدائها غبطة وارتياح ، لا كأنه ينهض بعبء أو يعالج مشقة مفروضة عليه ، وهذه هي الآراء التي تفيض بها كتبه وأحاديثه ويحتويها هو كلها ولا يتأتى لرأى منها أن يحتويه كل الاحتواء

خزانة الذكريات

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

في قرارة قلبي خزانة حافلة ، أحفظ فيها بكل لحظة من تلك اللحظات المليئة الشائقة التي هي وحدها كل ما يحينا نحن الفنانين في هذه الحياة

وأنا بهذه الخزانة غني قانع . اذا صوحت من حوالى جنة الدنيا ، وتساقطت أوراق النى مثل أوراق الخريف المصفرة ، فزويت عنها الطرف آسفاً وانطويت على نفسى مستوحشاً ، تفتحت مغاليق خزانتي وانفجرت بابها رويداً رويداً من غير نأمة ولا صرير ، وتحركت دفائنها لعين خيالى كأني في حلم . فيتمثل لى ، بل يخامر حواسى منها ، طيف من أطياف الماضى الدفين ، طيف لحظة سعيدة أحالها القدم نورانية روحانية خالصة من كل كدر ، صافية من أدنى شائبة . كما يحيل تقادم العهد عصارة السكرم فى الدنان والرواقيد خمرأ شعشعانية ، تلتطف روحها وتلطف فكاًئماً لم يبق منها غير اللون والمطر ، فأنعم — من جديد — بما نعمت به جوارحي من قبل ، ولكنه في هذه المرة نعيم كنعيم الخلد ، هو نعيم الخلد ، وهل يبقى من احساساتنا الماضية الدفينة غير عنصرها الباقي الخالد؟ اليوم يا خزانتي وقعت على كنز سينتهى حظه اليك . فافسحى له مكاناً بين أنفـس كنوزك وذخائرك ! كنا الغداة في ضيعة من قرى الريف ، وقد مد لنا مضيفنا الكريم سباطا يكاد ينبخ بما فوقه من صنوف الطعام والشراب . فسكنا نقصف نقصف المستهترين المترفين فى ولائم الرومان وقد علا صخبنا وضحكنا . وشغلنا الالماماً عن تحف الطبيعة الرائعة يشرف عليها مقصفنا الصاحب : ساحة من رمال ذهبية تناثرت عليها مضارب خيام للعرب الرحل ، فى خارج هذه الخيمة جمل ضارب بجرانه ، وفى جانب تلك عنزة مشدودة بجبلها المتراخى الى وتد ، وفى داخل الخباء اعرابية مبرقعة وفى أذنيها حلق من فضة وفى أنفها شنف من مرجان ، وهي تدق البن أو تدبر الرحى . ثم تحيط بساحة الرمل الذهبى حقول زمردية من المزارع الشاسعة النامية تتخللها بقاع عارية مخططة أخايد أخايد لم تنخرج شطأها بعد ، ويخيم فوق الجميع أفق لازوردى ساطع لا تعكر صفوه غيمة واحدة عابرة

ولكن كنا فى شغل عن المجالى الشعرية والمدركات النفسانية . كنا نقصف نقصف المستهترين المترفين فى ولائم الرومان

وإذا بفتاة أعرابية أقبلت علينا في أزهارها الأسود الضافي ، فما هو إلا ان رفعت إلينا طرفها
الفضيض السكجيل حتى أحسنا أننا انتشلنا من حياة دارجة عادية إلى حياة أعلى ، إلى حياة فوق
مستوى حياتنا ، لا تسمع لنا لأغية . وفاضت الاحساسات الشعرية من داخل أنفسنا على الطبيعة
التي كانت منذ هنية تتبرج لنا سدى . أما الفتاة فجهاها فن فريد عجيب . وجهها نافه كاسف
وشفتها السفلى متقلصة ممدودة ، مطرقة العينين مسيلة الاهداب دون ان يشفع في ذلك حياء يضرج
وجنتها أو يثير الحياة في أساريها . ولسكن . . آه تماسك يا قلبي ! رفعت إلينا عينيها فانفتحت
عوالم سحر وضياء ، سحر عميق لا يدرك كنهه ولا يحل عن المسحور طلسمه ، وضياء غريب يهتك
الشفاف بارقه ويضل العقول هديه . وسطع وجه الفتاة بمعان تتجدد وتتولد ويمور مائرها
وتكاثر كالكتائب على فؤاد الناظر فتأخذ عنة واقترحاً في هجمة واحدة ، وزها لون خديها
فاذا حمرة خفيفة ترف عليهما كحواشي الاصيل مترقرقة هافية تخبو وتسطع وتطفو وترسب . وقد
غمر جسدها من الفرع إلى القدم حياء عذري لمجرد اشتباك لحاظها بلحظنا ، فجسدها العذري يهتز
من انتعاش وري كالغصن المترعرع يستقبل الندى والنسيم

شجعنا حياء الفتاة على مكالمتها في أدب ولطف ، فهي تحتلج وتتغر من الحجل ، وتبتسم فتستدير
وجنتها كالكمثرى الشبية ، وتبدو ثيابها كاللؤلؤ المنضود ، وتكاد شفتها الممدودة المقررة تقطر
شهداً . ولكنها بعد كاهرة البرية تنفر من الملاطفة فتتنفس أساريها وتكاد تعخذش
والآن . . أزف الرحيل وانفرطت آخر الساعات الهنية التي حيتها في هذه البرية المصغرة إلى
قرب فتاة نفور من أوابد طبائه . فوداعاً ! وداعاً يا طيبة الرمل التي ابتعثت في جوارحي احساسات
عداد حباته ، ونفتت في روعي حرارة كحرارة رمضائه ، ولئن ودعتني مشافهة واستحييت ان
تودعني مصافحة فان نظرتك ، آه نظرتك وابتسامتك كانتا أشجى وقماً في قلبي من المصافحة ،
بل من القبلات والعناق

خزانة قلبي اليوم ما اغناك وما أسعدني بك ! فافتحي لي مغاليقك كل مساء اسرح عين خيالي في
كنزك الجديد فيحيا في نفسي شعجوها الجديد القديم . وان شعارك هذا المنقوش من قديم بعمق على
شغافك وفي قرارتك هو نفسه شعار (جوته) الحكيم مدى حياته المديدة :

لا تغيضي من عيوني أبداً يا دموع الحب وابقى سرمداً
إني عينا غاض منها دمعها تبصر العالم جذباً فدفا
لا تغيضي من عيوني أبداً يا دموع الحب وابقى سرمداً

الفروسة

تاريخها ، ومبادئها ، ورسومها

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

إذا كان الاقطاع أساساً جوهرياً لصرح النظم الاجتماعية والسياسية في العصور الوسطى فإن الفروسة أهم حجر في صرح الاقطاع ، بل لقد كانت دعامة الاقطاع تحكم بناءه وتربط أطرافه المتباينة ، وتصل بين طبقاته الرفيعة والوضيعة . وكانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر في بدء العصور الوسطى قبل أن تنتظم الفروسة وتزدهر ، الحرية والرق ، فكان من الناس أحرار وأرقاء . فلما اضمحل نظام الرق ، وسما شأن الفروسة ، كان أهم ظاهرة للتفريق بين البشر ، النبيل والمنبت العام ، فكان من الناس فرسان أو نبلاء أو سادة ، وكافة أو عامة . هذه الفروسة التي لبثت قروناً زهرة المجتمعات النصرانية والتي لعبت دوراً عظيماً في الحروب الصليبية ترجع مبادئها ورسومها وتقاليدها الأولى إلى أواخر القرن الثامن ، أو أوائل القرن التاسع ، ثم إلى نظم الاقطاع في عهد النورمان ، فنراها في عصر شارلمان تتخذ صورة احتفال يزود فيه الفارس الفتى بالسلاح . والظاهر أنها كنظام حربي ترجع إلى أقدم من ذلك ، إذ يذكرها المؤرخ ناسيتوس في حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ويصف رسومها . ولكن الفروسة كشراف عسكري رفيع يمنح في نوع من الرسوم الدينية ، ترجع إلى القرن الحادى عشر فقط . بيد أن الفروسة الإسلامية أقدم وأعرق ، فهي ترجع إلى عصر الاسلام الاول في القرن الأول للهجرة (القرن السابع الميلادى) ولكنها لم تكن نظاماً دينياً أو سياسياً ، بل كانت خلة وموهبة وكفاية ، وكان لها أيضاً نوع من الرسوم والتقاليد . ويفرد ابن قتيبة في كتابه « عيون الاخبار » باباً للتحدث عن الفروسة وآدابها ، ويورد عن أصولها ورسومها بعض الأقوال الماثورة . أما الفروسة النصرانية فلم تزدهر وتستكمل عناصر الاستقرار ، وتغدو فوق صفتها الحربية نظاماً سياسياً اجتماعياً يرجع إلى اصول ورسوم مقررة أدجت فيها الحقوق والواجبات معاً ، قبل القرن الحادى عشر

وقد كان النبيل كما رأينا قاعدة الفروسة وخاصتها الأولى . وكان التفريق بين النبلاء والكافة في مراحل الاقطاع الأولى غامضاً في الغالب . ولكنه تقدم منذ أصبحت وراثية الضياع المقطوعة حقاً مقررأ ، ثم غدا في النهاية قاعدة لانتظام الناس في طوائف قوية كانت أظهر عنصر في مجتمع

المصور الوسطى . والنبل يتكون من عنصرين مختلفين : الاول وراثه الضيعة بما تحمل من تعهدات في أداء الوجبات الكبرى ، والثاني أهلية القتال على ظهر الجواد ، أو بعبارة أخرى الفروسة (Chevalerie) والصفة الثانية تحمل في نيتها فكرة الملك أيضاً ، فهي تتضمن القدرة على اقتناء العدد الغالية اللازمة لأداء واجبات الفارس . وقد كان امتزاج هذه الفكرة بفكرة الملكية المقاربية وفكرة المنبت الحسن ، يمد الأمير الاقطاعي بخدمات صفوة من المقاتلة . وكانت هذه الصفوة وأسرها أرقى عناصر الاشراف (الارستوقراطية) وأقوى الطوائف في مجتمع بربرى كمجتمع العصور الوسطى وقد أفضى شرف المنبت الى تحول هذه الارستوقراطية الى طبقة بكل معانى الكلمة ، يتعذر على الكافة اقتحامها والاندماج في سلكها دون مصاعب ورسوم حمة . وكان من وسائل هذا الالتحاق أن يشتري الفرد العادى ضيعة تلحق بها صفة النبل (Terra Nobilis) أو يسبغ الملك أو أحد كبار النبلاء عليه صفة النبل هبة منه لخدمات أداها أو كفايات مهينة عرف بها ، فتلحق عندئذ صفة النبل هذه بالأرض التي يملكها وتنتقل الى عقبه بالأرث . وواضح أن خلق النبلاء على هذا النحو كان وسيلة حسنة لاحاطة العرش بأشخاص يؤيدونه ويرعون مصالحه . وهذا العصر هو في الواقع فاتحة لنهوض الملكية وبروزها من اغلال الاقطاع ، وتبوء نظمها مركز الغلبة والسيادة على ما عداها من نظم السلطان والحكم . وكانت وراثه النبل تنحصر باديء بدء في صف الذكور ، ولكن ميل العروش الى اتباع السياسة المتقدمة أفضى قبل بعيد الى منحها للإناث أيضاً ، وغداً يمكننا أن تهب الانثى صفة النبل لعقبها فيصبحوا فرساناً وسادة ونبلاء

ولما استقر النظام الاقطاعي وتحسنت موارد الارستوقراطية بتحسين الزراعة ، غدا الواجب الذي يقضى على الفارس باتباع الأمير على نفقته الخاصة ، بالنسبة للسادة الاقطاعيين ، أرفع ضروب الشرف والكرامة . وكان الفارس اذا ارتدى عدده المنيعة الشاملة وتقلد سلاحه الذي يدججه من الرأس الى القسم ، وامتنطى صهوة جواده الذي يغطيه الحديد والصلب مثله ، أضحي أهلاً للقاء عشرات من العامة غير المسلحين ، فإذا اجتمع من هؤلاء الفرسان عدة استطاعوا أن يرهبوا المئات والالوف من أتباعهم ويلجئوهم الى الخضوع والطاعة . وواضح أن استفحال مثل هذه الخصومة بل وجودها كان يؤدي في كثير من الاحيان الى معارك دموية لا يعدم العامة فيها وسيلة للانتصاف لانفسهم من عسف الفرسان وجورهم . على أن ارتباط الحقوق بالواجبات بالنسبة للفريقين ، كان في ظروف الحياة العادية يدعم نظاماً اجتماعياً كنظام الفروسة تنقصه جميع عناصر الاستقرار السياسي

وقد ندهش حيناً نتأمل رسوم الفروسة وتقاليدها ، ويخيل لنا انها رسوم إحدى الهيئات الدينية أو الجمعيات السرية الكبرى . والواقع أن هذه الرسوم التي يجب حوزها لنيل شرف الفروسة قديمة جداً ، وقد أشار اليها تاسيتوس كما قدمنا في حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ، وقد اتخذت منذ نشأة الفروسة صبغة من الروعة والجلال تكاد تدنو من القدسية . وخلاصة هذه الرسوم

هي أن المرشح للفروسة قبل أن يزود بالسيف والمهماز يجوز بعض التجارب والاختبارات، ويقضى أياماً في الصوم، ثم يمضي ليلة في كنيسة عتيقة مظلمة يستسلم فيها إلى التفكير والتأمل، وبعد ذلك يغطي السيف والمهماز، ويلطم على خده أو كتفه لطمة خفيفة إشارة إلى آخر إساءة يسوغ له أن يفرض عليها. وهذا ومع أن الفروسة نظام اجتماعي سياسي فإنها لم تخل من الصبغة الدينية، بل كانت هذه الصبغة قوية فيها إلى حد أن نظام الفروسة ذاته كان يشبه فيما يخص بالحقوق والواجبات بالهياكل الكهنوتية المقدسة. فالفارسي المبتدئ يلزم بالاستحمام وارتداء السترة القصيرة، على نحو ما يقع في إحياء التنصير. ويتسلم الفارس سيفه على هيكل الكنيسة من يد أحد رجال الدين، ويسبق الاحتفال بقبوله كما قلنا صوم وابتهاج، ثم ينادى فارساً باسم الله والقديس جورج والقديس ميخائيل. ويقسم الفارس بعد ذلك أن يؤدي واجبات مهنته — فقد كانت الفروسة مهنة كما رأيت — وليس من ضمان بوفائه سوى التربية والقوة الحسنة وحكم الرأي العام. وخلاصة قسمه أن يقول الصدق وأن يؤيد الحق وأن يحمي المنكوب وأن يستعمل الرقة والمجاملة في معاملاته وأن يطارد أعداء الدين وأن يحتقر مغريات الرفاهة والامن وأن ينتصف لشرفه في أية مقاومة خطيرة. وقد بلغت هذه الرسوم في القرن الحادي عشر مكانة عليا من الجلال والتقدير حتى كان واجباً على الملك ذاته لكي ينتظم في سلك الفروسة أن يخدم البلاط وصيفاً ثم سيداً مرشحاً للفروسة ثم يمنح بعد ذلك المهماز النهمي أو رمز الفروسة

وكما كان للفروسة رسوم وعهود خاصة بها فكذلك كان للفروسة رياضات والالعاب خاصة بها. وللـفروسة فضل في تطور هذه الرياضات والالعاب الارستوقراطية، فقد عدلت عن الالعاب الاولمبية القديمة حيث كانت تعرض المناظر العارية فتبعد العذارى والنسوة عن ارتيادها وتبعث الفساد والتهتك إلى أخلاق الشبيبة، وآثرت عليها الالعاب الرزينة المحتشمة. وكانت المبارزة احب هذه الالعاب إلى الفرسان والسادة، فكانت تعقد لها حفلات شائعة يهرع إليها الفرسان من كل صوب ويشهدوا اشرف الكواعب والعوائل واجملهن. وقد تستغرق الحفلة يومين او اكثر وتجري فيها المبارزات الفردية بين فارسين يتقاتلان بالرمح، وللظافر أن يغنم سلاح خصمه وجواده، وله فوق ذلك ان يسمى سيده من الحاضرات تشرف على بقية المبارزات والالعاب وتسمى ملكة الحب والجمال، ومن ثم كانت فكرة الحب تترن بكلمة الفروسة في العصور الوسطى، وكان حب امرأة يعني في نظر الفارس المتيماً اجلال الجنس اللطيف كله. واحياناً كان الفارس يؤثر بتأمله عادة معينة وتكون علائقهما نقية افلاطونية فقط. وقد كان دور الفروسة في هذا الشأن مستقي خصباً لا آداب مستفيضة من قصص جميلة رائعة ونظم رقيق حماسي وانايد وروايات شائعة لا حصر لها. هذا ولم تكن الفروسة تقف في رياضاتها عند النزهة واللهو، بل كانت ايضاً تنظم معارك صغيرة وتقيم تمارين جديده من مهاجمة حصن والدفاع عنه الى غير ذلك

المهاجر

بقلم الاستاذ حليم دموس

هي القصيدة التي ربحت جائزة مستشفى ريز السنوية عام ١٩٢٧

هجر الروض وعاف الثمره وليالى أنسه المزهرة
ومضى يضرب فى آفاقها ولسان الدهر يروي خبره
ركب الأهوال سيرا وسرى نادبا تلك الربوع النضرة
وهو لا يدري أيقضى لهفا أم من الدرهم يقضى وطره
يلتقيه بين أشواق الردى والردى ينشب فيه ظفره

بحياتي هاجر مغترب غالب الدهر ولاقى عبره
كان فى موطنه معرفة وهو فى المهجر أمسى نكره
ألف الأسفار حتى راضها واستندل البحر حتى حيره
وهو فى الفجر يناجى شمسهُ وهو فى الليل يناجى قمره
يحطم اليأس جناحيه كما تحطم الريح أصولاً نخره

قف على الشاطئ واشهد ساعة موقف التوديع وارسم صوره

وانظر البحر فكم سارت به
تحمل القوم جموعاً وعلى
هجروا الأوطان في محنتها
بينما عقدهم منتظم
سفن في عرضيه منتشرة
موجيا أدمعهم منهمره
لينجوا أمة محتضره
إذ تراه درراً منتشرة

ما انتفاع الأئم من أبنائها
يرجع الليث إلى غابته
وتغيب الطير عن أفراخها
ويصان الدر في أصدافه
إن تناءوا وهي عند المقبره
بعد أن يطوي الفيا في المقبره
لتوافيها بأشهى ثمره
ثم يحلى كالدرارى النيره
يذكر الربع ويهوى أثره
هكذا النازح عن أوطانه

رب أرض حسبت حنظلة
وركاز تحت أطباق الثرى
وبلاد لو حماها أهلها
وهي لو تسقى لكانت سكره
بات في صدر الغواني جوهره
لاستحالت أمة مقتدره

أدر الدفة يا ربانها
قل لمن أثروا : أعينوا وطناً
أنتم الروح لجسم ناحل
فالحمى حن إلى من هجره
يتعزى ببنيه البرره
أنتم الماء لتلك الشجره

الطغاة وحرية القلم (١)

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

في عصور الظلمة التي تمر بالأمم أنا بعد أن يعمد الباطشون البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة . وفي سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الاقلام حرباً لا رحمة ولا هوادة فيها ، فمن إرهاب إلى سجن ، إلى نفى وتشريد . وهم في حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم محاربة عيونهم مفتحة خياشيمهم — أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهبج فيها كل غرائزها الوحشية . ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا اذا اطمانوا إلى انهم حطموا هاته الاقلام الى غير عوة لان تكتب وأذلوا نفوس حملتها إذلالاً لا قومة لهم من بعده . هذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم وحملته ، لاتهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالقاً ما بلغ أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها ما يحول بخاطره وما يمليه عليه خياله أو يتسق لمنطقه . وكل ما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس من شاء فتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها الى حيث شاء . والامر كذلك سواء كانت هذه الورقة جريدة أو مجلة أو كتاباً من أى صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه الورقة حوّلها من القوة التي يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذي يحشد ويسخر في سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق وما هو أكبر من ذلك من الوان الارهاب والارهاق ؟ وهل انتصر الظالمون يوماً على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر أبداً آخر الامر وباه مطارذوه بالخبية والخذلان وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكري وانص الأثر ؟

اما ان يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كل العذر ، حرية القلم هي المظهر الاسمي لحرية الانسان في أسى صورها ومظاهرها . وحرية القلم انما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لا عامل من عماله ، رب تؤتبه الطبيعة من قوة الخلق والانشاء مالا سبيل اليه إلا في جو الحرية المطلقة ، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقا ولو وضع هو في غيابات السجون ، بل تدفع ذكره لخلق هذه الحرية اذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن ما زال نرى ثمرات الاقلام منذ آلاف السنين

(١) اخترناها من كتاب « ثورة الادب »

الماضية هي التي تهز العالم حتى اليوم هزاً وتنشئ فيه الى اليوم والى الابد ألواناً من الخلق جديدة . ذلك بأن القلم هو الاداة لتصوير النفس الانسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الانسانية التي تلتبس هذه النواحي المضيفة من حياة الكون هي أبداً نفس قوية لا تقف في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها . نفس تخلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذي تريد ايضاحه او الحرية التي تريد نشرها أو الجمال الذي تعالج تصويره ، أو الخير الذي تعمل ابته وإذاعته . فاذا اهتدت الى ما ابتغت نفثت منه على القلم ما يسطره على الورق . وإذا الذين يقرهونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوباً عنهم ضياؤه . ويرون أن هذا الضياء هو الذي يبعث لهم في الحياة نوراً يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم . وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه . فان لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً

هذه القوة التي تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هي أقوى وأبقى ما على الحياة من سلطان . هي قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايماناً فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هي هذه القوة الانسانية تصل بين الانسان وقوى الكون العليا وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التي يستند اليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى تكون هذه القوة المادية وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما في الحديد والنار من بأس وهول الى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ ازل الكون الى أبدى هذه القوة الروحية الكبيرة التي يصدر القلم عنها وتوحى هي اليه هي مصدر الخلق والحياة ومصدر كل نبي في الوجود . بل هي التي تشكل تلك القوة المادية التي تناوى الروح وسلطانها لكي لا يحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعاً إذا تجردت مما يحول دون انبعاثها في العالم ولم يقف عائق في سبيلها فلم تبطل في سيرها !

وكما أن حرية القلم هي وحي هذه القوى العليا فان الطغيان منشؤه أخس غرائز الانسان وأكثرها أنانية وانحطاطاً . فتش عن الطغاة في التاريخ واستمع الى كل ما يتشدقون به من الاقاويل والدعاوى وما يزعمونه من حبه الخير لبنى الانسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تبهدهم دائماً ينتهون الى هذه النتيجة : انما نطغى ببنى الانسان لانهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هي الكمينه أبداً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره . وهي عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التي يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا ، والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا ، والطاغية يرى المزيد في انتشار العلم ضرراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا ، والطاغية يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتكلمون فان هم خالفوا تعاليمه ضلوا ، والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فان لم يصادرها ضلوا ، والطاغية

يستمد الوحي في هذا كله من أحقر شهوات الأنانية التي يفرضها على الناس ويريد منهم أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فإن لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كليلة العذاب ولهم سوء الدار . هذا الضلال الذي يزعم الطاغية أنه يريد انقاذ الإنسانية منه ، وهو إنما يريد بها فيه لشهواته وأنانيته ، قد تنوه به الإنسانية زماناً يحتم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام ، فيمد للباغي في أسباب بغيه وهو ناشب في قلب الإنسانية أظافره ما كنف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرج هذا الظلام شعاع من نور الحق . وللظلمة في تكثيف الظلام الذي ينشرون حولهم أساليب عجب . فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء اضدادها ليسخروا من الناس ويزيدوهم ظلماً . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ، وكل الغاية التي تكلف هاته الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج الأباطيل ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ما شاء لهم خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما هم بكتاب وإنما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافاً لسادتهم وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة الى الحق والى الحرية . هؤلاء ليسوا كتاباً وإنما هم كالسكاب تبصص بذنبها لمن يلقي اليها بطعام أو بعظمة من العظام ، وتنبج من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتاباً ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ، لأن السكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن إيمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتاباً يخلقون ما شاموا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء اضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذي يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فاذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعاً من النور يبدد منه فله الويل وله النكال وله عذاب السعير

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التي يخلقها الطاغية ليعيش فيها ، أنك ترى كل الوان التكريم والاعزاز في عهده تذهب الى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن اليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة في حياتهم أن تمتد كرامتهم الى ما بعد موتهم . أما هؤلاء فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . في ذلك اليوم ينال التراب على صحتفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لنويمهم من بعدهم ألا يذكروهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس لهذه الحجة ما ينقض حرقاً منها

وإذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فإن المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون في عصور الطفيلان هم على الإنسانية بلاه دائم وشر مستطير ، يفسدون الآداب والأخلاق ويعلمون الناس الكذب والنفاق وينزلون بأدب السكتابة الى أحط درجاته . وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه وإن شاب الاعزاز احتقار ، ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والآداب واللغة أى

أذى . بل انك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الا كبار من بطانة الطاغية لانهم يعتقدون في الزلنى اليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق

على أن الظلم وان تكاثفت ، والمظالم وإن اشتدت ، والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان دائماً من أثره أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تتراكم السحب حتى تحجب الشمس وتبعث على الأرض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم اذا المطر يستنفد السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ماتلبث هذه الظلم المتكاثفة في جو الطغيان حتى تبعث الى نفس ملهمة كلمة الحق ترتفع في صيحة قوية خالصة . فاذا الظلم تضطرب قوائمه واذا الطاغية يكفهر وجهه واذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقاً على صاحب الصوت وعلى أنفسهم . ثم اذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع ويرتفع . واذا القلوب التي وجلت من قبل رعباً وخشية تنفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة . ثم اذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة . ثم اذا النور نور الحرية والحق يعم الارجاه . واذا الظلم والظالمون والطغيان والطفافة قد انقلبوا صاغرين غانية وجوههم للحجى القيوم

في العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكن نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثاً . وليكن عالماً أو أديباً أو داعية دينياً . فهو يرسل بصيحته الضياء الى النفوس المشتاقة الى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى يتنبه الطغاة الى مصدرها ويقدرّون خطرهما . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كي يخدم صوته ولا يمتد الى ظلماتهم التي خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا في حقبة التاريخ جميعاً أن يخفوا هذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى في روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والارهاب التي كان ينشرها حكاهم ذلك العصر ، ويعلى في الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحسك في روسيا قائماً على الاستبداد المطلق . مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد الى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه . لان ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى من سلطان كل سلطان ، ولان الظلم الذي يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعاني يزيد بها في النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الامثال . وأرباب الاقلام الذين اضطهدوا في عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الاسباب في ارتفاع كلمتهم وذيوع صوتهم ومحبتهم وحسن استماع الناس لهم وشديد ايمانهم بأرائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا في سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ، فاذا جاءت الى الازهان أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة ، ذلك بأن الذين جاهدوا الخير الانسانية قد نسوا أنفسهم في الانسانية فأحلتهم الانسانية مكان الكرامة والاعزاز من قلبها

التسامح

بقلم الأستاذ أنطون بك الجليل

أى كتاباتك أحب إليك ؟

لا أحيب بما قاله الشاعر الفرنسى : « إن خير اشعارى ما ترال فى خاطرى لم أنظمها الى

الآن »

ولا أقول ما قاله فاطمة بنت الخرشب - وهى احدى منجيات العرب - حينما سئلت : « أى

بنيك أفضل ؟ » فاجابت : « الربيع . بل عمارة . بل انس . » ثم عادت فقالت : « ثكلتهم جميعاً ان

كنت أدري أيهم أفضل ! »

لا أحيب بشيء من ذلك ، فان فى ذلك بعض الادعاء ، وان كان فيه نصيب كبير من الحقيقة .

ولكنى لا أكتفى فى حيرة من أمرى لتعيين ما أعده أحسن ما كتبت . وقد أعرب لى كثيرون

من الزملاء - الذين القى اليهم محرر « الهلال » بهذا السؤال الذى القى به الى - عن مثل هذه

الحيرة . فانه يصعب على الكاتب أن يتخير أحب كتاباته الى نفسه وهى كلها من بنات افكاره .

وتزداد هذه الصعوبة اذا كان الكاتب قد قضى مدة غير يسيرة فى التحرير ، وكانت كتابته مشتتة فى

الصحف والمجلات . فليس فى مكنته أن يجمعها ويراجعها فى عرض عام ليفاضل بينها فيعلن أيها

أحب الى قلبه

لذلك رأيت أن أخرج من حيرتى هذه باعتمادى على التوفيق والصدفة . فعمدت الى خزانة

حوت الكثير من كتاباتى القديمة وأخذت بعض أوراق منها بلا فرز ولا تخير . فكانت نسخة من

خطاب عن « التسامح » ألقته منذ عدة سنوات فى الاسكندرية ، وتفضلت يومئذ مجلة « الهلال »

بنشره وبطبع مائة نسخة منه على حدة . فقلت : « هذا الذى أفضل ! » ولا أدري اهو الربيع ،

أم عمارة ، أم انس ؟ وعلى كل فالتسامح فضيلة نحتاج اليها فى كل زمان ومكان

وهذا هو الخطاب ملخصاً ليتسقى والنطاق المسموح به فى هذه المجموعة :

☆☆☆

... . للتسامح أسماء شتى ومترادفات عديدة فى نفس لفظها بيان واف لحقيقة مدلولها وتعريف

لما تنطوى عليه من المعانى : فهو التساهل من السهل ضد الوعر أو الصعب ، وهو الملاينة من اللين

ضد الصلابة . وهو المياسرة من اليسر ضد العسر . وهو التسامح من السباحة . وهو المصانة والهوادة والرفق والالانة والانعضاء . ففي جميع هذه الالفاظ بالنسبة الى الغير معنى عدم التشديد في المعاملة والحكم . وبالنسبة الى المرء نفسه - على ما ذكر علماء النفس عند العرب - معنى كظم الغيظ والاحتمال لما لا يراد . أو بعبارة أخرى التسامح هو تلك الفضيلة الاجتماعية التي تجعلنا نحتمل ونحترم عقائد الغير وآراءهم

ومن المعروف أن الناس ليسوا على رأى واحد ولا على عقيدة واحدة : فلكل منهم طريقة خاصة به في النظر الى الامور وتصور الاشياء والحكم عليها ، بل إن ما يرضى الواحد قد يسوء الآخر وما يستبجح اليوم قد يستملح غداً ، وما يحب هنا قد يكره هناك . قال الامام علي : « إن معروف زماننا هذا منكر زمان مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت » . وقال لابرويير La Bruyère الكاتب الاخلاقي الشهير : « ما يعد حقيقة امام جبال اليرينه يعد خطأ وراءها » فلا يحق اذاً لاحد في معظم الاحوال أن يدعى احتكار الحقيقة وادراك كنه الامور دون سواء

فما دامت الحال كذلك أصبح التساهل أمراً واجباً . فقد يكون للواحد منا آراء دينية او فلسفية أو سياسية أعز على قلبه من كل عزيز بل قد يضعفى في سبيلها بماله وحياته . فله أن يطالب بحرية الدفاع عنها والاحتجاج على كل من يمتنها . وما دام له التمتع بهذا الحق فليس له أن يأباه على الغير فاذا ما طلبنا من الغير تسامحاً تحتم علينا أن نكون متسامحين : سنة العدل والانصاف بين الناس . ولا يحق لنا أن نلاقى غير الشدة اذا كنا متشددين

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم ولا يقضى التسامح باحترام آراء الغير فقط ، بل يوجب غض الطرف عن هفواتهم والانعضاء عن سيئاتهم وعيوبهم

ذلك ان الانسان مجبول من طينة النقص والضعف . فاني له أن يدرك الكمال المطلق أو يبلغ المثال الاعلى من السجاياء والطباع « من ذا الذي ترضى سجاياء كلها ؟ » مهما كبح من جهاج شهواته وشدد في القبض على عنان أهوائه ؟ فلو رجع كل منا الى نفسه وناقشها الحساب الدقيق لوجد ذاته أحوج الناس الى التساهل

ومع ذلك ومع وفرة ما رأينا للتساهل من الاسماء فما أقل المتساهلين ! ومع كثرة الادعاء بالتسامح ، ما أندر المتسامحين الحقيقيين ! كل ينادى بالتساهل ، وكل ينشد التسامح فيكافئ الغير هذا الخلق ولا يكلف نفسه التحلي به

أطلب صاحباً لا عيب فيه وأنت لكل ما تهوى ركوب

واذا أنعمنا النظر في حالة البشر من حيث وجدوا يعيشوا مجتمعين متآلفين ، لا منفردين متقاطعين ، نرى أن التسامح أشد الفضائل لزوماً وأوفرها فائدة ، بل هو شرط الاجتماع وأساس الاتحاد

وقوام التضامن ودعامة الوفاق والسلام بين الافراد وبين الجماعات : فلا تحيا جمعية بلا تساهل ، ولا تمشي أسرة بلا تساهل ، ولا تدوم علاقة بين فردين اثنين فقط — ولو كانا أخوين — بلا تساهل . واذا نظر كل منا الى علاقته بجميته أو بأسرته أو بصديقه أو أخيه ، يرى ان هذه العلاقة ما نشأت ولا ثبتت إلا بالتسامح المتبادل . ولو زالت روح التسامح من بين الناس تقوض ركن الاجتماع وعفت معالم العمران وضاع معنى التضامن والاتئلاف ، فعاش البشر أفراداً متقاربين جسماً متباعدين نفساً لا تقوم لهم مصلحة مشتركة كانت او مستقلة . فبالتساهل قيام المصالح الفردية كالمصالح العامة . فكلما تمت روح التسامح في صدر الانسان زاد هناؤه وصفاءه « فالرفق يمن والابانة سعادة » وكلما سادت هذه الروح في بلاد أو طائفة أو جمعية أو أسرة ، توافرت فيها اسباب الرقي والفلاح واتسعت خطاها الى ادراك غاياتها سياسية كانت أو اجتماعية ، ادبية او مادية

بل يا بعد ما يكون ادراك هذه الغايات بغير تسامح ! واذا ادرك الانسان ما يريد بالتشديد فأنما ذلك الى اجل وسرعان ما يبوء بالفشل

كان الاضطهاد نصيب من يخالف المجموع في عقيدته . وأى عقيدة لاقت ما لاقت النصرانية من المقاومة فلم يزلها ذلك الانموأ ورسوخاً ! حتى كان الشيوخ والعداري يسرون الى العذاب مؤثرين الموت على جحد عقيدتهم . بل ربما كان الاضطهاد من أعظم عوامل انتشار الاديان والافكار . وعدم الفائدة من الاضطهاد ولد التساهل الديني الذي لخصه أمير الشعراء بقوله :

الدين لله ما شاء الاله هدى لكل نفس هوى في الدين يعينها
وفي حقيقة الامر ليس من إله أو انسان عاقل يرضى بانقياد أحد له انقياداً قهرياً قائماً على
الاكراه

كان السيد المسيح إمام المتساهلين ونبراس المتسامحين ، فنهى عن كل عنف وشدة عامداً في تعاليمه الى الارشاد بالاقناع والاستمالة بالبرهان . وعنه أخذ العلماء والفلاسفة أسس مبادئ الرفق والتسامح : « من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر ! »

يقول الافرنج في أمثالهم : « بدرهم غسل تمسك من الذباب اكثر مما تمسكه بقنطار خل » وقد دل الاستقراء ودلت حوادث التاريخ ، كما تدل اصول العلم البسيكولوجي على ان ما لا يدرك بالمشاهدة قد يدرك بالملائنة

نعرفون حكاية الريح والشمس وقد تراهما على أيهما تستطيع نزع الرداء عن كتف رجل . كان مسافراً في الجبل : هبت الريح عاصفة هوجاء ، زمهرت وزمجرت ، وتسربت في طيات الرداء لتخلعه عن الرجل ، فما زاد الرجل الا تمسكا بردائه حرصاً عليه ووقاية لنفسه ، حتى عجزت الريح عن مطئنها وذهب مجهودها في ادراجها . فقالت لها الشمس : « حسبك غناء ودعيني الآن أفعل ! » سكنت الريح وأرسلت الشمس أشعتها لطيفة منعشة . فأمن الرجل شر الهواء وسرى الدفء في جسمه

فعمد الى ردائه وخلعه عنه بيده . فقالت الشمس للريح : « ها قد أدركت باللين ما لم تدركيه بالعنف »
أجل قد يدرك بالرفق ما لا يدرك بالشدة . فالما على لينة يقطع الحجر الصلد ، ولكن
ما لا يدرك بالاقناع هيات أن يدرك بالقوة . فالقوة قد تمكن صاحبها من الأجساد ولكن أتى لها
أن تمكنه من النفوس ؟ والداء الكامن في العقول لا تستأصله القوة وقد يستأصله اللين . فالأوهام في
الرهوس كالمسامير : كلما ضربت عليها بعنف زدتها رسوخاً في موضعها . وإذا شئت نزعها لا بد من
معالجتها برفق حتى تتمكن من رهوسها فتجذبها اليك وتقتلها

كان معاوية مؤسس الدولة الأموية يقول : « عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه
بالحجة ، ولمن يطلبه بخرق وهو يقدر عليه برفق »
وقد كان معاوية هذا من أقدر الناس على ادراك أغراضه وقضاء حاجاته بالملاينة والمياسرة حتى
استتب له أمر الخلافة والدولة بعد أن كثر منازعوه

ومن حكاياته في هذا الباب انه كان لعبد الله بن الزبير أرض وله عبيد يعملون فيها ، وإلى جانبها
أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون . فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله ، فكتب هذا كتاباً
إلى معاوية يقول فيه : « أما بعد يا معاوية فإن عبيدك قد دخلوا في أرضي فأنهم عن ذلك والا كان لي
ولك شأن والسلام » فلما وقف معاوية على كتاب ابن الزبير . وقرأه دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه
قال له معاوية : « ماترى ؟ » فقال : « أرى أن تبعت إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك
برأسه » فقال معاوية : « بل غير ذلك خير منه » ثم أخذ ورقة كتب فيها جواب كتاب عبد الله يقول
فيه : « أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى الرسول ، وسأنى ما ساءه والدنيا بأسرها هينة في جنب
رضاه . تزلت لك عن أرضي فاضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال ، والسلام » فلما وقف
عبد الله ابن الزبير على كتاب معاوية كتب إليه : « قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا
أعدهم الرأي الذى أحله من قريش هذا الحل . والسلام » فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله قرأه
ودفع به إلى ابنه يزيد . فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه : « يا بنى من عفا ساد ، ومن
حلم عظم ومن تجاوز استمال إليه القلوب . فاذا ابتليت بشئ من هذه الأدواء فداؤه بمثل هذا الدواء ،
أما التسامح الفكرى فلنا عليه مثال جميل في حكاية ملك الفرس سابور بن أردشير ، وكان
قد ظهر على عهده مانى الزنديق ودعا الناس إلى مذهبه ، فلما قبض عليه سابور أشار عليه نصحاء
دواته بقتله فقال : « ان قتلته من غير أن أقطعه بالحجة قال الناس بقوله . ويقولون : ملك جبار قتل
زاهداً . ولسكنى اناظره بالحجة فاذا غلبته قتلته » وهكذا فعل

أدع لكم أيها الاخوان النظر فيما أعقبه تساهل معاوية من حمل أحد العصاة على الاقرار له
بالخلافة وفيما انتجته تسامح سابور من القضاء على الزندقة في أيامه . قابلوا بين هذه النتيجة التى
أدركها هذا وذاك وما كان قد حصل من فتنة ونسر مستطير لولا تسامحهما . . .

... أيها الاخوان ! قد أطلت التبيين والارشاد ، ومع ذلك لو اقتصرتم على ما تقدم قد يحمل كلامي على غير محله فأرسي بما أنا منه براء . فلا بد لي من بعض استدراكات تحمل الامور محلها راجياً أن تبدؤوا بباطهار تسامحكم وتساهلكم

إن تساهل الانسان مع الغير لا يفيد بتاتاً تساهله مع نفسه وترك الجبل لها على الغارب تنطوح في اهوائها : ذلك مذهب الاباحيين وليس من التساهل في شيء ! فلا يكون التساهل حقيقياً إلا اذا شددنا على أنفسنا بما قد نتسامح به مع الغير : فاذا عذرت رفيقي لتقصيره في خدمة قومه وبلاده مثلاً يجب ألا أعرف لنفسى عذراً في هذا التقصير . بل إن اشد الناس تسامحاً مع الغير كانوا أكثر الناس تشديداً على أنفسهم فلم يفتفروا لها زلة ولا يعنى اللين والتساهل المحاباة والجداع :

كالصل يظهر لنا عند ملمسه حتى يصادف في الأعضاء تمكينا

فإن الصراحة أن يعتقد الانسان كل مايقول لا أن يقول كل ما يعتقد وقد ضل أيضاً من توهم أن تجاوز المرء عن شؤونه يفيد اغضائه عن حقوق الغير : لحقوق الغير مقدسة لا يجوز التسامح بها . فليكن منا ، إذا شاء ، أن يغضى عن بعض حقوقه ، ولكن ليس له أبداً أن يتساهل بحقوق صديقه أو عشيرته أو بلاده . قال رجل للبرد : « أسمعني رجل في نفسى سوءاً فاحتملته ، وأسمعني فيك فاحتملته » فقال البرد : « احتمالك في نفسك حلم ، واحتمالك في صديقك غدر » وتزيد احتمالك في بلادك خيانة شعواء لا تغتفر . فالتسامح اذن حيث يجب التشديد مضر كالغنف حيث يجب اللين :

ووضع الندى في موضع السيف في العلى مضر كوضع السيف في موضع الندى وقد قال فارس بنى عبس لهيلة :

اتى على بما علمت فانتى سمح مخالفتى إذا لم أظلم
وإذا ظلمت فإن حامى باسلى مر مذاقتيه كطعم العلقم

فالعلم لا ينفي البسالة . والتسامح لا ينفي المناضلة والجهاد دون المبدأ : فن الحماقة أن نتصور التسامح عنوان الضعف ودليل الجبن والاحجام ، بل هو فضيلة الانفس القوية الكبيرة . فتراه أشد نمواً في صدور المتوقدين حماسة لمبدأهم منه في صدور الفاترين : الرجل القوى في عقيدته المتمكن من فكرته الثابت في خطته ، أوفر تساهلاً من الرجل الضعيف الرأى المتزعزع الفكر الذى يحاول أن يستر ضعفه وتقابه بتعصب أعمى وتشديد بلا معنى . يقول الفلاسفة إن ما جاوز حداً معلوماً لا يكون فضيلة : فللفضائل حد من قصر عنه لا يكون فاضلاً ، وكذلك من تعداه . فالافراط كالتفريط كلاهما غير محمود . والفضيلة وسط بين رذيلتين . ولذلك قالوا : « خير الامور الوسط وحب التماهي غلط » فالشجاعة فضيلة بين رذيلتي الجبن والتهور . والكرم فضيلة بين البخل والتبذير .

والحياء وسط بين الفحجة والمهانة . والوقار سحجة بين الهزل والكبر
وكذلك التسامح . فهو اذا كان ينفي الصلابة والمساكسة والمشادة لا يعنى الضعف والاستسلام
والترأخي . والا فان ما نسميه تسامحا وتساهلا وأناة وهوادة وملاينة . ينقلب رياء وملقا ونفاقا
وتدليسا ومداهنة . وبالاختصار تصير تلك الفضيلة الحميدة التي أطربناها رذيلة ذميمة يجب أن
نشجبها . ومتى وصلت المجاملة بالإنسان الى حد الخنوع والاستكانة فانها تعدل خيانتة لنفسه
وأعيدكم من هذه المساهلة الدنيئة !

نحن وضعنا نصب أعيننا غاية شريفة نسعى اليها بكل قوانا دون وهن في العزيمة ولا فتور في
الارادة . فاذا مادعوتكم الى التسامح لم ادعكم الى التراخي في الدود عن تلك الغاية الوطنية والعقيدة
القومية . بل أنا ما دعوتكم الا الى التسامح المشتق من « سمح الرمح أى ثقفه حتى لان » وليان
الرمح لايعنى ضعفه بل تقويته . فيلوى وينثني دون أن يقصف أو يكسر
افتخرت السندانية يوماً بصلابتها ففاخرتها القصة باستلائها . هبت العاصفة فكسرت السندانية
أما القصة فالتوت ولم تكسر . ولما سكنت العاصفة كانت السندانية ملقاة على الحضيض . وانتصبت
القصة رافعة رأسها

هكذا يجب أن نخنى امام عواصف الزمان . واذا ما لقينا عقبة في سبيلنا هل نحن فاعلون
« كناطح صخرة يوما ليوهنها » ؟ لا أيها الاخوان . غير ذلك خير منه في الاحوال التي نحن فيها
بل إن لنا أسوة بالنهر المتدفق من الجبل : هو ايضا يسعى الى غاية ؟ غايته الانضمام الى البحر
معتشوقه . فيسير اليه بلا ملل . تارة هادئا مترققا . وتارة مرغيا متدفقا . ولكنه يسير دائما الى غرضه
تحت جناح الظلام أو في اضواء النهار . انظروا اليه وقد قامت في وجهه ربوة . كيف يتجمع بحيرة
فيقوى على تسلق الربوة والانحدار من أعلاها شلالا فخما . او كيف يدور حولها فيجعل منعطفه
سوارا لها . راقبوه ايضا وقد لقي في مجراه ثغرة فغار فيها . يحيل الينا هنيئة ان الارض قد التهمت
ونذبت به قبل ان يدرك غايته . ولكن اصغوا : ان هديره الخفى ينبىء بوجوده وبدوام سيره حتى
يخرج هناك في السهل ، وقد مدته الجداول تحت الارض فزادت حجمه . ينسبط الآن على الشاطئ
مرتاحا مطمئنا وتتدحرج أمواهه الى البحر . فيلاقيه البحر بأمواجه ، حتى تتسرب تلك في طيات
هذه ، ويتلاشى النهر وقد ادرك غايته في صدر البحر . . !

هذا هو اللين الذي نريدكم عليه يا أنصار الاستقلال : النوا ولا تقصفوا . انشوا ولا تكسروا .
ذا كرين أن ألين النفوس أصلها مكسرا . فاذا أردنا منكم لينا فن غير ضعف . واذا دعت الحالة الى
الشدة فن غير عنف . نحن في عصر سادت فيه العصبيات القومية واستيقظت النعرات الوطنية . فاعتصبوا
دون ان تنعصبوا ! واشتدوا دون أن تشددوا ! وتساحوا دون ان تقعدوا . أما في المبدأ فلا تلينوا
« حتى يلين لضرر الماضع الحجر » . .

الحرب العظمى

بقلم الاستاذ احمد محرم

حماة الوغى أين السلام الموطد ؟
عهود كتضليل الاماني ، وراءها
اطالت عناء السيف والسيف مغمد
كان الوغى ملهى ، كان الردى هوى
كان انين الهالكين مرَدَدًا
كان بني حواء تزجي جموعهم ؛
كان كتاب الله لغو ، كأنكم
ملائم فجاج الأرض ناراً ، فلم تبت
لئن كان متن الجو بالحنف موقراً
أبينتم ، فما يلتقى على الارض مهبط
أماناً حماة السلم لا تمسحوا الدنى
عبيثتم بآمال الشعوب ، فأبغضت
لئن فحبت الهلاك من نكد الردى
فواجع هال الأمس واليوم وقعها
تود الدراى الطالعات لو انما
كان نجوم السعد غضبي على الدنى
كان الدنى حمراً وسوداً من الوغى
كان الالى صبوا على أهلها الردى

وأين الوصايا ، والذمام المؤكد ؟
وعود ، كما طار الهباء المبسود
وطاحت به في الرّوع ، وهو مجرد
كان الدّم الجارى شراب مبرّد
أهازيج في أسماعكم تتردّد
إلى حومة الحرب ، النعام المطرد
على الناس ، أرباب تطاع وتعبد
من الخوف إلا وهى بالناس ميد
فان عباب البحر بالهول مزبد
لناج ، ولا يلنى إلى النجم مصعد
ولا تدبجوا عمرانها ، وهو يولد
من العيش ما كانت تحب وتحمد
لعيش الالى لم يطعموا الهلك انكد
وريع لها من قبل أن يولد الغد
محجبة مما تراعى وتشهد
إذا ضمها يوم من النحاس اسود
جهنم تحمى للعصاة وتوقد
زبانية ، منهم حديد وجلد

كَأَنَّ الرَّدَى صرخی العنانین موعلاً
وقائع ، لم يشهد لها الدهر مرّة
لئن كان هزلاً مارأى الناس قبلها
اخو جنّة ، او راحلٌ يزود
شبابه تروی ، او نظائر تعهد
فلك التي لا هزل فيها ولا دد

تفجرت النيران من كل قاذف
وطارت بها الارواح فوضى يضمها
قذائف ملء الجو يرمى حثائها
إذا ما أملت بالحصون تطارت
إذا جحدت تدّ مير أخرى تهابها
إذا داهمتها ، لم تفدها ضراعة
تحاول أسباب الفرار ، لعلها
تودّ ارتياحاً لو حوتها حمامة
وقد ملك الآفاق نسراً مخلق
بأرجائها واستجمع الدم يجمد
إلى الله (عزرائيل) والله يرصد
من الحنف ذى الأهوال رام مسدد
ذراها على ، واندك منها الموطد
أناها من التدّ مير ما ليس يجمد
ولو خرّ عاتيتها على الارض يسجد
تغاث إذا طارت سراعاً وتنجد
وغيبها تحت الجناحين هدهد
يطوف باكناف السهمى يتصيد

وأخرى^(١) إذا زاغ الردى عن سبيله
أضاءت له سود الغياهب ، وانبرت
إذا ما تردت بالسلاح كتيبة
وان أجمعت أخرى صدوداً عن الوغى
تنبه من لوعاتها ، وهى هجد
تود من السهيد المبرح أنها
ويشتاق عانيها من الأمن نولة
وطاح به ليل من الشك أربد
على البعد ، تهديه السبيل ، وترشد
تكشف من سوء آتيتها المتغمد
أنتها خيالات الوغى تتودد
وتبعث من روعاتها ، وهى همّد
حواها من المأثورة البيض مرقد
ولو أن أطراف الأسنة مورد

(١) الانوار السكشافة

اطو خريطتها !

اوربا وباريز يوم نشوب الحرب المظهى

بقلم الاستاذ سليم عبد الأحد

درستها منذ صباى فعرفت حدودها من البحر إلى البحر ، ومن الشرق إلى الغرب . وكنت أتصورها دائماً رمزاً إلى الجمال ، فلا يتمثل لى فى حدائقها غير البنفسج ، ولا فى فضاءها غير البابل . وقد أصبحت اليوم « بركاناً » هائلاً يتقياً حمماً تذهب بحال الطبيعة الفتانة

كذلك شاء الانسان . يهدم فى ساعة واحدة ما بناه آباؤه فى مئات من الاعوام . يحمل سيفاً بيمينه ومعولاً بيساره يقطع بذلك ويضرب بهذا . يقول حسناً أن ابنى ، وأحسن منه ان اهدم

بهذا سوف يشهد التاريخ . ان ابناء المائة العشرين لم يبقوا شيئاً لابناء العصور المظلمة ، وان اله الحرب وضع احدى قدميه على ضفاف الرين والاخرى على شواطئ الفرات ثم أخذ يعمل معوله فى قصر السلام . هذه « ريمس » و « لوفان » و « لياج » قد ضاعت مواقعها على الخريطة . يقف السائح على اطلالها ويسأل أين كانت مرابع مدينتها ، ويلتمس العصفور مكاناً يبني فيه عشه ، ونسور الجو تحوم فوق قبور كانت بالامس قصوراً

ماعهدى باوربا انها قبر لمدينة القرن العشرين . قد هدم المدفع قصورها وحصد السيف رقاب بنيتها ، فبئست مدينة النار والحديد . قد أصبحت مطعم الطامعين . كذلك الطير الذهبي اللون فانه مطعم أنظار الصياد

سلمت قصورك يا بلاد الجمال . تحميك أسوار من قلوب ومن حديد . فكيف تطوى خريطةك من الوجود ؟ بل بئس ما أنت فيه . أين جمالك الساحر وحسبك الفتان ؟ أنت الآن سكرى براحة الدماء . غداً تستيقظين من حلمك الرائع فتجدين حولك انقاضاً بالية وطلولاً دارسة

بل غداً يرسمونك من جديد ، يزرعون اشلاء بنيك فى تربتك الصالحة فينبعث منهم جيل احرص على السلم ، وتنسى الشكلى أولادها الراحلين . يرجع العصفور إلى عشه ، والببل إلى ايكه ، والرين إلى صفائه . ترسب اشلاء القتلى فى قعر الانهار ، ويصنع الحوت ولحمة تذكرها أجياله من بعده ، وينسى الاحداث جغرافية أوربا ، لان السيف قد مزق خريطةها القديمة ورسم لها خريطة جديدة ،

وسينقش التاريخ على صروح الرين : « هنا آثار مدينة غابرة » وعلى ضفاف الدانوب : « هنا كانت مملكة الرجل المريض » (١) هو ذا الاكفان معدة . في أوروبا اليوم مليوناً أرملة وثكلى . قد اتشحن بالسواد ، ولكن وراه دموعهن عهد فرح وسلام لان فلذات اكبادهن انما دفنوا في قبور الجحد ، وذكركم على السنة الاحياء . وستشاد على بقاياهم مملكة السلام الجديدة

هنيئاً لهم فقد حرروا العالم من نير ثقيل . سينقش التاريخ ذكركم بأحرف من ذهب ويجعل أعمالهم أقاصيص تلقىها المرضعات على الأطفال . يتغنين بها لينام الطفل ويحلم أحلامه المبهجة سلام على خريطة مزقها السيف . سلام على قصاصة سوف تضم الى سجلات الخلود فارقت باريز منذ ثلاث سنوات ثم عدت اليها فوجدتها اجد شباباً وأكثر نشاطاً . كذلك النسر في شيخوخته يتجدد صباه . وهل تعرف باريز هرما وهل يعبت الزمان بجهاها ؟ سل ما فيها من دور وقصور . ألم تضم بين جدرانها رهطاً من حملة التيجان الذين كانت الارض تميد تحت أقدامهم ؟ لقد انطوى عهدهم ولباريز كل يوم عهود

ويح باريز مهبط النور والجمال - مدينة السحر والاحاد - تزينها الكنائس المزخرفة مصب الذهب واللجين - يموت أولادها جوعاً . . متى كانت باريز غير نسخة من الجحيم ؟ اذا عطشت سقاها « السين » واذا جاعت ألقمها بنوها النضار . لها معدة تهضم التبر . هي بالوعة قد رسبت فيها أقدار بابل ونيوى . . ويح جهاها الشنيع ، وتقواها الآثمة ، وأغنيائها المعوزين قالوا ان لباريز نظيرات في الجمال ، كذبوا ، مالاسماء شمسان ، ولا ليل قران أزل باريز عن الخريطة . ما الذى يبقى من العالم غير اطلال بالية ؟

أمح اسمها من بطون الاسفار ؟ ما الذى يبقى من شعر « هوفو » وغزل « لامارتين » ؟ تأملت في ظلمتها الدامسة وقد ساد عليها السكوت وهجعت في ابراجها النور . رأيت السين ينساب بين شاهقاتها وقد خفت خريره وطفئت المصابيح على ضفتيه ، لان باريز الجميلة مثقلة باعباء الهجوم . . متى كانت باريز مدينة السكوت ؟

انصورها عابسة مظلمة ولم أعتد أن أرى على نغرها غير الابتسام ولا شهدت في بنينا غير السرور . فما أطول ليلها الدامس ! انه ابدية ملة . وإلا بديدة تفغر فاهها وتتناوب لتبلع أولادها البائسين أتروين وتبقى انقاض الهمجية ؟ أتندثرين وتبقى أطلال التوحش ؟ ما الذى يبقى من العالم اذا أزالوا اسمك عن الخريطة ؟ وعلى من بعدك تنثر الشمس التبر من أشعتها الذهبية ؟

ليس ما يلهمنى عن ذكرك الطيب . كل تذكاراتك طيب تطيب به النفوس . لتكن كل أيامك اعياداً يا باريز . ليتخر الغريب الناقم عليك ولينتشر في ربوعك السلام . ان كنت اليوم صامته فغداً تتكلمين . غداً يراك العالم اكل بهاء وأتم اشراقاً

(١) لقب النمسا قبل الحرب

فرعونيون وعرب

بقلم الاستاذ احمد حسن الزيات

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ما أقدرهم على أن يشيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حربا من غير جند !!

حالا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل في الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الاخرى : فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟ ! نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمة النفوس وأغنة الأهواء ، يقول هـا كوني فرعونية فتكون ! أو كوني عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام . فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه في المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام في العراق والشام أن الامر جد ، وان الفكرة عقيدة ، وان ثلاثة من الكتاب أمة . وان مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والسكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ! ..

مهلا بنى قومنا لاتعتدوا بشهوة الجدل على الحق . ورويدا بنى عمنا لاتسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ! إن الأصول والانساب عرضة للزمن والطبيعة : تواسج بينها القرون ، وتفعل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة . فاذا قلنا فلان عربي أو فرنسي أو تركي فانما نعني بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والادب والأخلاق والهوى والدين . فبديع الزمان عربي وأصله فارسي ، وروسو فرنسي وأصله سويسري ، والامير فلان تركي وأصله مصري ، لان كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءا من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه . . فبأي شيء من هذا يتبارى إخواننا الجدلون وهم لو كشفوا في انفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم دينا ، وتسرى في دمائهم أدبا ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض في عواطفهم كرامة .

لا نريد أن نحاجهم بما قرره المحدثون من العلماء من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج ينقطع فيه النفس ولا ينقطع به الجدل . . . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرنا وثلاث من التاريخ العربي ، نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . . وذلك هو ماضى مصر الحى الذى يصيح فى الدم ، ويشور

في الاعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم
أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد
الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة
ترتل « كتاب الاموات » وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للمعجاوات ، وقبور ذهبية الاحشاء
ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت
الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضى الابد الذى تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بالوانه وتشدو
بالحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تنتقل الى
الاعتقاب الا فى نتاج العقول والقراخ ، فهل كشفتم بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة
تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن
مصر القديمة دفن فنت روحه مع الآلهة وصحائف موت ذهب سرها مع السكينة ؟

لا تستطيع مصر الاسلامية الا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربى ، لانها لا تجد مدداً لحيويتها
ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها الا فى رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ، ولفنها لونه
فذلك قانون الطبيعة ولا شأن لمينا ولا ليعرب فيه : لان الفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه
الحس ، والحس موضوعه البيئة والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها فى كل قطر . فاذا
لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة . ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاته (اللون المحلى) وهو
شرط لصدق الاسلوب وسلامة الصورة . وقديماً كان لون الادب فى الحجاز غيره فى نجد وفى العراق
غيره فى الشام وفى مصر غيره فى الاندلس . دون أن يسبق هذا التباين دعوة ولا أن يلحق به أثر
انشروا ماضى القبور من رفات الفراعين . واستقطروا من الصخور الصلاب اخبار الهالكين .
وغالبوا البلى على ما بقى فى يديه من أكنان الماضى الريم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة
الآثار وعظمة النيل وجمال الوادى وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها فى
مومياء فرعون هي روح عمرو . وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر . وان القينار
الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قينار امرى القيس . وان آثار العرب المعنوية التى لا تزال تعمر
الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم هي أدعى الى الفخر وأبقى على الدهر

انما تنافضل الامم بما قدمت للخلقة من خير وتتفاوت الاعمال بما أجادت على الانسان من نفع
اليس (الحزان) خيراً من السكرتك والازهر أفضل من الأهرام . ودار السكتب أنفس من دار
الآثار ؟ - وبعد فان ثقافتنا الحديثة انما تقوم فى روحها على الاسلام والمسيحية . وفى أدبها على
الآداب العربية والغربية . وفى علمها على الفرائح الاوربية الخالصة . أما ثقافة (البردى) فليس
يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالاقباط

مقياس الرقي^(١)

للاستاذ احمد امين

سألني أديب سوري ، بمناسبة مقال كتبه عنوانه « المسلمون أمس واليوم »
بم تعد أمة أرقى من أمة ، وما العوامل التي تحسبها ونقيس بها الرقي ؟ وفي الأمة الواحدة -
إذا سئلنا أ كانت بالأمس خيراً منها اليوم ، أم هي اليوم خير منها أمس . فأى النواحي نرعاها
عند النظر ؟ والحق أنها أسئلة في منتهى الصعوبة ، يحار الحبيب عنها أى العوامل يحسب وأيها يترك ،
وأيها له قيمة كبيرة الأثر وأيها ضعيف الأثر ؟

قد يحيب محيب اجابة سهلة من طرف اللسان فيقول : « مقياس الرقي في الامم الاخلاق » فأرقى
الامم أحسنها خلقاً ، ولكن هذه الاجابة لاتقنع ، فالاخلاق متغيرة ، وكل عصر له أخلاق يتطلبها
وواجبات ينشدها ، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها . أصبح واجباً
علينا أن نعلم أولادنا في المدارس ، وما كان ذلك واجباً من قبل إنما كان تبرعاً من الاب . وأصبح
واجباً علينا ترقية الوطن من جهات متعددة ، وما كان ذلك واجباً من قبل وإن كان واجباً فواجب
غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه . وكان آباؤنا يعدون من ارقى الاخلاق في الأمة حجاب
نسائها وبناء سور متين بين الرجل والمرأة ، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل .
ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل . فاذا قلنا
مقياس الرقي الاخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شيء ولا تدل على شيء

وقوم يقيسون الرقي بالدين وهي كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف أنظار الناس ، فيضيق
عند بعض الناس حتى لايسع إلا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويتسع عند بعضهم حتى يشمل كل شيء
وفي الحق أن هناك مناحي للحياة مختلفة متعددة يجب أن ينظر اليها كلها لتقويم الرقي - ففي
كل أمة مجموعة من المرافق . يعد كل مرفق منها كالحليسة في الجسم الحي : من حكومة وتعليم وافة
ودين وأسرة ونظام اقتصادي ونحو ذلك . كلها تتغير وكلها ترقى أو تنحط . وكلها في حركة مستمرة
دائماً إما الى الامام وإما الى الخلف . وكلها تتفاعل تفاعلاً قوياً ، يؤثر قواها في ضعيفها وضعيفها
في قوياها - وهذا التغير الدائم في كل هذه المرافق هو مقياس الرقي والانحطاط . فان كان تغيراً الى
سمو فرقي وإن كان تغيراً الى تدهور فأنحطاط

(١) اخترناها له . . .

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير . فقد تتدهور بعض المرافق لأسباب خاصة وتسمى بعض المرافق لأسباب كذلك . ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا . والمثل الأعلى للامة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدي عمله خير اداء ، ويتنقل في سمو أبدا ، وان يكون سيره ورقيه في حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية ، لا يظفر عنها ولا يقعد بها - فالامة التي تختار أحسن النظم في التربية والتعليم ولا تساعد اللغة على المصطلحات الحديثة لا ترقى في التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية . والامة التي تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ثم لا يعينها على ذلك حالة الاسر الاخلاقية وحالة المعاملات بين الافراد ، لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية . والامة التي تسن أرقى أنواع الإصلاحات الاجتماعية ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح إصلاحاتها تسر القارى ولا تسر الناظر . وهكذا

وهناك دلائل قوية تدل الباسح على رقى الامة وتدهورها وسيرها الى الامام او الخلف . اما بمقارنتها بغيرها من الامم في نواح معينة أو بمقارنتها بنفسها في عصرها الحاضر وعصرها السابق . والمقارنة الاولى تدلنا على الدرجة التي تقف عليها الامة في سلم الرقي العام . والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها : الى فوق أو تحت

من أهم هذه الدلائل تعرف موقف الامة ازاء ما يحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية : هل هذا الجيل أحسن استخداماً لبيئته وما يحيط به ؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعاده أكثر مما استطاع أسلافه ؟ هل استخدم المنابع القديمة خيراً مما استخدمها آباؤه ؟ هل كان في حله لما يعرض له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقاً ؟ لما عرضت هذه المصاعب أو أمثالها لنا ولا آبائنا كيف حلوها وكيف حللناها ، وما منهجهم في الحل وما منهجنا ؟ ما مقدار تضامن الافراد يومذاك في التغلب عليها ، وما مقدار تضامننا اليوم ؟ لسكل أمة مقدار من الثروة ، فهل زادت ؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل ؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها . فقلدت الوفيات وتحسنت صحتها ، وجعل منظرها ، ونظفت عيشتها ، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والادب ؟ أظن ان هذه الاسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الاجابة عليها عسيرة ، وبذلك نستعين على تعيين مقدار الرقي ومن ناحية أخرى ، ربما عد من أكبر دلائل الرقي في الامة « تذليل العقبات أمام الكفايات » فخير الامم من أفسحت السبيل أمام افرادها ليرقوا كما يشاهون حسب استعدادهم وجدهم ، في التعلم ، في الوظائف ، في النواحي السياسية والاجتماعية - وقد قطعت الامم المتقدمة في ذلك خطوات واسعة فازالت احتكار الارستقراطية للمناصب العليا ، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء ، وأعتمدت في تقدير الاشخاص على مزاياهم لا على بيتهم - الى درجة كبيرة - وحاربت « المحسوبية » والنزعات الارستقراطية

وقضت على النظام الاقطاعي الذي يميز بين الطبقات ويضع حداً فاصلاً بينها لا يمكن تخطيه ، ووضعت
النظم الاقتصادية الحديثة ، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه ان يصل إلى ما يستطيع من رقي
— وان كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية في ذلك ، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات
طويلة يجب ان يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقي النظري ثروة الأمة ومقدار ما يصرف منها على « الصالح
العام » من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وإنارة ونحو ذلك . ولست أعني النظر
إلى كمية ما يصرف فحسب ، ولكن أعني أيضاً كيفية الصرف ، وهل انفق هذا القدر في احسن السبل
وهل هناك وجه آخر خير منه ؟ . كذلك لست أعني ما ينفق في ذلك من ميزانية الحكومة فقط ،
ولكن أعني أيضاً مقدار شعور الافراد في هذا الباب ومقدار ما يترعون به من أموالهم لهذا الصالح
العام ، فليست ثروة الأمة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثروة الافراد « وفي أموالهم
حق معلوم ، للسائل والمحروم » فالأمة التي لا يشعر أغنيائها بواجب في أموالهم لفقرائها ، أو يشعرون
شعوراً ضعيفاً لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم ، أمة منحطة إذا قيس بغيرها من الأمم
التي كثر فيها المدارس والأندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها

وما يتصل بهذا الأمر ، النظر في ميزانية الاسر في الأمة وكيف تنفق ، فامة خير من أمة اذا
عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها ، وكيف تفرق بين الضروري والكافي وما ليس
بضروري ولا كافي ، ولم تسمح لنفسها أن تصرف في الكافي حتى تستوفي الضروري ، ولا في غير
الضروري والكافي حتى تستوفي الكافي ، فذلك — من غير شك — يجعل الاسر أسعد حالاً ،
وأهدأ بالاً ، وأكثر استعداداً للرقى ، وهل الأمة الا مجموعة من الاسر ؟ وهل رقي الأمة الا حاصل
جمع رقي الاسر ؟ وكما أنت أسرة قد تكون أسعد من أسرة مع أن دخلها أقل وثروتها أضعف ،
ولكن عقلها أكبر ، وتصرفها لما لها أدق ، فكذلك الأمم ليس خيرها أغناها ، ولكن خيرها من
عرفت كيف تستخدم ما لها وأحاطت بما تملك بوسائل اجتماعية ، وكمية كبيرة من الإصلاح تجعل
ما لها يتضاعف في القيمة وان لم يتضاعف في العدد — فكذلك من أمة لها ثروة كبيرة طبيعية ولكن
لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءاً منها ، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيرت صحراها بستاناً
وجبالها جناناً ، ولجعلت ترابها ذهباً وأرضها عجباً . ومن أجل هذا لم يخطئ كثيراً من حصر مقياس
رقي الأمة في مقدار تغلبها على طبيعة بلادها وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها — لانها لا تصل إلى
ذلك الا بمقدار كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بارضها وجوها ، وبقدر وافر من العلوم
الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها ، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والاخلاقية
يهيئ للافراد سبل الانتفاع بما حولهم ويعددهم خير اعداد للنظر في مصالحهم
فليتساءل الشرق في ضوء هذا : أين هو في نفسه ، وأين هو في أمته ، وأين أمته في العالم ؟

عظيم ... (١)

بقلم الدكتور طه حسين

كان حازماً إذا قال أو فعل ، وكان حازماً إذا هم أو مضى ، وكان ألياً إذا سيم الضيم ، عصياً إذا دعى الى الحسف ، عزيزاً إذا أريد على الهوان ، جمع الله له قلباً زكياً ، وأنفاً حمياً ، وضميراً نقياً وخلقاً رضيعاً

ولساناً صيرفياً صارماً كحسام السيف ما مس قطع
ثم رماء بالاحداث والخطوب فلم تلن قناته ، ولا فلت شبانه ، ولا صدعت صفاته ، ولا صرفته عمارسم لنفسه من طريق ، ثم رمى به الاحداث والخطوب ، فلم تثبت له . وإنما ولت عنه نافرة . وانهمزمت أمامه ممعنة في الفرار . وليست الخطوب التي تعترض عظام الرجال شراً كلها . وليست الخطوب التي تتاح لعظماء الرجال خيراً كلها . فهذه النعمة السابغة التي يتمها الله على الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة وضرب من ضروب الفتنة ، لأنها خليفة أن تعربه بالاشر والبطر ، وتزين له الكسل والفتور . وهذه النعمة القائمة التي يتمتع بها الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة وضرب من ضروب التشجيع ولون من ألوان التحريض ، خليفة أن تعودده احتمال المكروه والصبر للنوائب والتفوق في مصارعة الاحداث . وقد ابتلى سعد بالنعم السابغة فلم تفسد عليه من امره شيئاً ، وابتلى سعد بالنقم الملحة فلم تفل له حذاء ، ولم تضعف له عزماً ، ولم تجعل لليأس الى نفسه العظيمة سيلاً أجمع المصريون على حبه وإكباره إبان الثورة لأنه كان زعيم صفوتهم وقائد خلاصتهم الى مثاهم الأعلى من الحرية والكرامة ومن العزة والاستقلال . اليه آوى قاسم حين كتب تحرير المرأة فتذكر له الدهر وأهله ، وبه لاذ محمد عبده واصدقاؤه القليلون الذين كانوا يمثلون في آخر القرن الماضي وأول هذا القرن آمال مصر ومثلها العليا في الحياة الكريمة الراقية

وأجمع المصريون على حبه وإكباره إبان الثورة لأنه كان يقود الشعب كله الى هذا الامل العزيز الذي كان مقصوراً قبل الحرب على الخلاصة والصفوة ثم شاع بعد الحرب في الناس جميعاً

ثم اختلف المصريون فيه بعد الثورة فسلمت له كثرتهم الضخمة وعددهم الرائع . ونهضت له جماعة منهم تقاومه وتحاصمه ، وتحاوره وتساوره ما وسعها المقاومة والمخاصمة ، وما أطاقت المحاورة والمساورة . وأغربت به أقوى أمم الارض وأشدّها بأساً وبطشاً وأعظمها حولاً وطولاً وأوسعها

(١) اخترناها له . وقد نشرت في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٣

سلطاناً ومليكاً . نفقته ثم رده ثم ضاقت به فابعدته ثم عجزت عن اسره فاطلقت . وظل هو طول حياته باسماء للنعمه باسماء للنعمه لا تدفعه تلك الى أشر ولا بطر ، ولا تضطره هذه الى ضعف ولا خور . وظل طول جهاده ثابتاً لخصومه من مواطنيه ساخراً بهذه الكوارث التي كان يسلطها عليه اعداؤه من الاجانب حتى أعيأ أولئك وهؤلاء جميعاً

وإذا أولئك يقبلون عليه ويضعون أيديهم في يده ويؤمنون له بالزعامة والتقدمه ويتعاونون معه على البر والمنروف . وإذا هؤلاء يسمعون اليه ويعترفون له بالسلطان على نفس الشعب المصرى وقلبه ويسجلون ان ليس لهم الى ارضاء هذا الشعب سبيل الا أن يرضوا هذا الرجل ، ولا الى الاتفاق مع هذا الشعب سبب إلا أن يتفتوا مع هذا الرجل . وإذا هو يقضى الشطر الاخير من حياته العظيمة وقد سلم له اجماع الشعب كله على حبه واكباره لم يمتد منه أحد ولم يند منه انسان ، وإذا هو قد قهر عدواً عنيفاً وخصماً عنيداً . كان ما يزال ثملاً بأعظم انتصار عرفه التاريخ في اعظم حرب عرفها التاريخ

ثم يقضى هذا الرجل العظيم فتبكيه مصر كلها لانها فقدت اعظم ابنائها لاني عصرها الحديث ولا في عصورها الوسطى بل منذ فقدت استقلالها في التاريخ القديم . وبأسمى لفقده الانجليز الذين خاصموه وقاوموه وضاقوا به وسلطوا عليه ألوان الكيد وفنون العذاب لانهم فقدوا خصماً كريماً قد كان يوشك أن يكون لهم صديقاً حميماً ، وأن يجعل لهم من الشعب المصرى صديقاً حميماً أيضاً

وكذلك ابتسم الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى ابتسام الدهر عظيماً ، وعبس الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى عبوس الدهر عظيماً . وكذلك عرف هذا الرجل كيف يكون كريماً في المسألة كريماً في الخاصة كريماً في الجهاد كريماً في الهدنة ، وكيف يذوق البغض كأشد ما يكون فلا يفسده البغض ، وكيف يذوق الحب كاحسن ما يكون فلا يبطره الحب ، وكيف ينصرف عن هذه الحياة وقدملاً قلوب الاحياء ، وكيف تمضي الايام والشهور والاعوام على موته فلا تنقص من مكانه في القلوب بل تزيد ولا تضعف من سلطانه على النفوس بل تقويه ولا تغري بذكره النسيان بل تدوده عنه وتجعل شخصه ماثلاً دائماً أمام الشعب المصرى ، وامام الشعوب الشرقية كلها تلمس عنده الاسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، وتعلم من سيرته الصبر على المحن والفتن ، والجهد في الذود عن الوطن والازدراء لكيد الاعداء والنبات لمكر الخصوم

انما الرجل العظيم كتاب خالد ، لم يضعه الدهر لحيل بعينه ولا لشعب بعينه . وانما وضعه للاجيال جميعاً وللشعوب جميعاً . يعرف الناس أوله ولكنهم لا يعرفون له آخراً . يستطيعون أن يعرفوا أول هذا الكتاب حين يعرفون مولد هذا الرجل ونشأته ، ولكنهم ان يعرفوا آخر الكتاب اذا عرفوا موته لان هذا الموت لا يختم حياة العظماء ، ولعله يبدأها . أو يبدأ خير أجزائها وأعظمها غناء . لانه يزيل منها العناصر الفانية ويبقى منها العناصر التي لا تقبل الفناء . فاذا عرف الناس أن سعداً قد

ولد عام كذا ومات عام كذا ، فانهم قد بدأوا كتاب سعد ولكنهم لن يختموه إلا اذا كان لاخلود ختام
فقد تختلف الخطوب على مصر والشرق ، وقد تلم بهما الاحداث وقد يصيبهما الخير والشر
ويتناوبهما البؤس والنسيم . ولكنهما سيذكران دائما ان هذا الرجل قد فتح لهما باب الحياة العزيزة
الكريمة وعلمهما كيف يتغيا لها الوسائل ويسلكان اليها الطرق ويصبران في سبيلها لما يفرض
عليهما من تضحية وما يلم بهما من آلام

وستبحث مصر وسيبحث الشرق عن عظمة سعد هذه من أين جاءت وكيف أتت له .
وسجدان هذه العظمة في كل ما يعرفان وما سيكشف لهما التاريخ من حياة سعد ، سجدانه في
صبره الذي لم يكن يعرف ضيقا بالحوادث ولا اشفاقا منها ، وفي مضائه الذي لم يكن يعرف وقوفا
عن السعي ولا التواء عن قصد السيل ، وفي حلمه الذي لم يكن يعرف بطشا بالجاهل حين يقدر
على البطش ، وفي غضبه الذي لم يكن يعرف هواده في الحق حين يأبى الحق الهواده على طلابه ، وفي
لسانه الذي لم يعرف وقوفا ولا ترددا حين يجب القول ، وفي قلعه الذي لم يكن يعرف اضطرابا حين
يجب المضي ، وفي عقله الذي لم يكن يعرف كلالا حين يجب التفكير ، وفي فطنته التي لم تكن تعبا
بمشكلة ولا تفتر عن معضلة ولا تعجز عن النفاذ الى أعماق ما يعترضها من الامور ، وفي غير ذلك
مما يعرفه الناس ومما لا يعرفونه . وأكبر الظن أن الناس لم يعرفوا من أمر هذا الرجل الا أقله
لان حياة العظماء لا يكشف عن أمرها للناس ولا تبدو أسرارها ودخائلها الا حين يبعد بها العهد
وحين يتعرض غيرها من حياة الناس لعبث النسيان

ليذكر المصريون سعدا اليوم ، وليذكروه غدا فانهم لا يحسنون بذلك الى سعد كما يحسنون
بذلك الى أنفسهم ، فقد انتقل سعد الى هذه الدار الخالدة التي لا يفيد العظماء فيها من ذكر الناس لهم
شيئا ، وانما يفيد الناس من ذكرهم العظماء ، لانهم يجدون من سيرتهم ما يعلمهم الصبر حين يحتاجون
الى الجهاد ، وازدراء الكوارث حين يحتاجون الى ازدراء الكوارث . وما أشد حاجة المصريين في كل
يوم وفي هذه الايام خاصة الى ان يذكروا سعدا ويطلبوا النظر في سيرته ليعرفوا كيف يكون الصبر
حين تلم الخطوب ، وكيف يكون الجهاد حين يتألب العدو ، وكيف يكون حسن البلاء حين يطالب
الوطن أبناءه بأن يبذلوا ما يملكون من قوة وجهد ومن مال وروح ليحفظوا عليه عزته وكرامته
وليبلغوا به ما يريد من حرية واستقلال

ليلة البدر (١)

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

هات لي الذكرى وجدد ما مضى عندك الذكرى ورجعها معا
هات ما كان كما كان انقضى أو فجدد غيره مبتدعا
ليلة البدر وقد كان الرضى موعد الاهرام نبغي مطلعا
ققضى الله سواء غرضا

قد نويتنا ونوى الغيب لنا نية أمتع للمستمع
خسف البدر وأمسيت أنا أدعي من نشوة ما أدعي
كلما ناديتني هيا بنا ! قلت : هيا ! وأنا في موضعي
السنى عندي فإلى والسنى ؟ !

خسف البدر وما كان الخسوف شيمة البدر الذي بين يدي
نشر الناس وطافوا بالدفوف وأنا والبدر في نشر وطي
خل من شاء كما شاء يطوف إن بدرى طالع منه إلى
لا أحب البدر ترعاه الالوف

(١) من ديوان (وحي الاربعين)

يا سمير الليل يا نعم السميرُ مالنا والصبح ما دمتُ أراك
أنا في نور وروض وعبير حينما ألقاك لا التي سواك
رشفة من ثغرك العذب النضير أو من الكأس احتوتها شفتاك
وسلام أيها الكون المنير !

هات لي من فيك أنفاس الغرام أو فقل إن شئت أنفاس الحياة
واسقني الحجرة من أعذب جام لا من البلور في أيدي السقاة
ثغرك الضاحك كأس ومدمام ونديم لي ، وراو في الرواة
ينشد الشعر فيشجيني الكلام

ينشد الشعر جديداً كالصبا وأنا ناظمه منذ سنين
بثَّ فيه من صباه عجباً فإذا قلتَ ارتجالاً لا تمين
هات لي الحسن وهات الادبا واسقني الخمر من الثغر المبين
ذاك حسبي في زماني مطلباً !



جراف تسيلن

تحية الرهبة والاعجاب الى الدكتور هوجو اكنر

بقلم الـ نعمة صي

روعت القلوب ، أنت الذى لا تأخذك روعة ، ولكنها روعة العجب . وضععت الافكار ،
أنت الذى لا ينتابك تضعضع ، ولكنه تضعضع الطرب
تجمع الافق خاشعاً عند مرورك ، فكأنه قد انقلب ميدانا أعد لبديع ابلائك ، واشربت
السحب ، وشحب قرص الشمس . وبهت لمعان الاشعة لانها جميعاً لمحت فيك دليلاً على قدرة الله
فى الانسان

يا مهاجم العواصف والاضطراب . ومنازل الزعازع والاقدار ، وقاهر العناصر والطبيعة الجبار
لكثر ما انشد مواطنوك : « المانيا فوق الجميع » وها أنت اليوم تجوب السماوات العلى باحثاً
عن مقر لمطلبك ، فارضاً على النجوم افساح المكان لرايتك ، مرغماً حتى مجاهل الخليفة على الاعتراف
بعبقريتك وشكيمتك

قوة فى رشاقة . ورهبة فى أنس . وهول فى جمال . وتهديد فى مصافاة . واقدام فى حبور .
واقتراب فى رزانة . وتماظم فى اناقة . واقتراب فى تباعد . واسراع فى هواده . وسيطرة فى وداعة —
ذاك هو مظهرك المتعدد ، عندما انقلب الفضاء لاجلك بجرأ تسبح فيه أنت كأفخم السباحات
حالقت فوق القاهرة الخالدة ، فأشرت اليها بأن للخلود استكمالاً تبدى شيء كثير منه فيك .
وحمت فوق مراتب الروحانية والاسرار ، فأومأت بأن للروحانية والاسرار امتداداً فوق الارض .
وناجيت بعبورك الجدران العظيمة والهياكل الرائعة والتماثيل الصامته ، لتقول ان الانسان المقدم
لا يكتفى بكونه كوكب ولا يستقر فى مكان وأنه مضى يستطلع فيافي الافلاك ليضرب فيها خيامه
منذ عديد القرون وأبو الهول رابض فى إيوانه السنى يترقب صامتا بادرة مجهولة لا بد أن تقبل
عليه . أفأنت تلك البادرة أم أنت رائدها الاول ؟

ومثلثات الاهرام قائمة عند مدخل الصحراء تنطق بحديث لا يفهمه أحد منذ ابتداء الدهور
أأنت استطعت أن تلم بالمعنى القديم من حديثها الصامت ، وكما غلبت العناصر تغلبت كذلك على
ذكاه المصور ؟

تخليقتك أمثلة للثبات ، ومشهدك أمثلة للثبات ، وفوزك أمثلة للثبات ، وتحييتك إلينا حث على
الثبات ، فكل من شهيدك وراقبك وسمعتك استفاد ، وتلك أمثلة رسبت فينا
ما أثقل الأخشاب والمعادن وزنا ، وما أجدها حركة وأفزعها روحا في مكانها . وما أخفها وزنا
والطفها حركة وأوعاها حساً !

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف أيها المسجزة المتحركة على الدوام . بك أدركنا أن
للميكانيكا نبضا كنبض الحياة . بك أدركنا أن أحلام الشعراء وخيالات المتخيلين هي الحقائق الراهنة
عند العلماء وعند الشرعيين !

طر وحلق واسبح وحم وطف وتجول ، لتحمل بنى الإنسان على خالق كلمات جديدة في
لغاتهم يصفونك بها ويمجدون

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف واخلق فينا رعشات جديدة وأعجاباً جديداً وعزماً
جديداً وإدراكاً جديداً للأقدام والنشاط . فما استطاع امرؤ أن يرتفع ويخلق دون أن يرتفع
ويخلق مثله النابهون من معاصريه

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف في القريب والسيح من الأجواء . فانت في كل مكان
الاعجوبة الحيرة التي تلقى الروعة في النفوس ، وتعلو بالعقول إلى ما فوق محيطها المألوف ، وتهتف
بكل من يرى ويسمع ويعي : الثبات الثبات !

اذهب بعيداً في تجوالك فانت ما زلت عند أول غزواتك الفلكية . وللعبقريه والبطولة حق
أن تطوى شاسعات الابداد . وليس عزيزاً عليها حتى الوصول إلى عتبات الغيوب !

اذهب بعيداً وتجول كثيراً وكن في كل جولة وكل تطواف رسولا بين المعلوم والمجهول . اذهب
وطر وترنم وانشد ناشراً رسالة الارض في متراميات المدى . ولا تكن أبداً حرباً ونقمة بل كن دائماً
سليماً ونعمة على العالمين

ذكرى . . .

أباعدتمونا ما أقل وفاهكم فليس على أنا نباعدكم ندبم
ولكن وداً كان ياليت لم يكن تمر له ذكرى ويتبعها ألم

حسين شفيق المصري

دمعتي

للمستاد المحمّد صديق الزهراوي

انت ما إن تخففين مصابي
أنت لا تدريين عني دأبي
أنت لا تنجدينني في شقائي
أنت لا تدفعين وطأة شدي
أنت لا تقدرين أن تهينني
إنما أنت قطرة ستبكين
أو تضيعين بين لحيتي البيضاء
ارجعي فالحياة ليست تساوي
لا تخزي وإن قضى أن تخزي
إن نفسي لا ترتضي أن تهوي
يا ابنة الهم إن غرفت لك القدا
دمعتي لا تعولى في رزايا
فارجعي في مهل إلى القلب مني
أتريدن من مقرك في نفد
أنا لم أسأل العيون بكاء
وإذا ما هبطت بالرغم عني
إنني إن بكيت أبكي بشعري
كل بيت منه إذا عصره
بين شعري وما يجيش بصدري
أنا عنه محدث وهو عني

دمعتي فارجعي على الأعقاب
أنت لا تصلحين منه خرابي
أنت لا تنقدينني من عذابي
أنت لا ترجمين عهد شبابي
راحة أو تسكني أعصابي
إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تنضبين فوق التراب
أن تخزي من حالك كالشهاب
سبب قاهر من الأسباب
كشجوني وإن ملأني أهابي
ب فلا تخرجني إلى الأبواب
ك على وعد دهرك الكذاب
أنت لا تخلقين بالتسكاب
سي فراراً ينجيك من حر مابي
لتكوني عن السؤال جوابي
طال يا دمعتي عليك عتابي
ولقد أهديه إلى الاحقاب
دمعة ثرة على الآداب
من شعور وشائج الانساب
وكلانا في القول غير محاب

الساقون الثلاثة

بقلم الاستاذ توفيق الحكيم

« جرسونات » ثلاثة في قهوة الدنيا ، إذا ناديتهم اقبلوا « بالطلبات » وهم يرقصون ، وفي عيونهم وشفاههم سمات خفية ساخرة لا ترتاح لها نفس .. اول « جرسون » من هؤلاء طفل . وهو ابداً طفل وعمره ابداً خمس سنين . ويدعونه « الحب » . والثاني رجل وهو ابداً رجل وعمره ابداً أربعون سنة . ويسمونه « الشيطان » . وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » . والموت هو « الجرسون » الوحيد من بين الثلاثة الذي لم أفكر يوماً في تكليفه بأى طلب .. منظره لا يهيجنى وحسبى منه وقفته الوقحة و « فوطته » القذرة التى بها الف خرق ، وضحكته التى كسعال المسلولين وأسنانة الصفراء العفنة من تأثير إدمانه على التدخين والمفيات .. انه « يقرئنى » ومحال أن أتناول شيئاً من يده طوعاً واختياراً ..

أما « الشيطان » فيعجبني بطلاقة زلفاه وذكائه .. ولولا علمى أنه محكوم عليه غيباً .. وأنه من أرباب السوابق فى جرائم النصب والاحتيال .. لركنا إليه .. أنا وكافة « الزبائن » .. أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجليل .. إنه يأسرنى بلطفه ورقته .. أجل إنه الساقى الوحيد الذى أتناول من يده كل شئ .. وبلا تحفظ غير مبال إن كان ما يعطينى سما أو « شمبانيا » ..

ناديته فى الربيع الماضى فأقبل يحمل الى الكأس .. ووقف ينظر إلى برقة ساحرة ويتسم إلى بابتسامة خلافة تحوى أشياء لم أكن لأدركها فى ذلك الحين :

— ماذا تريد ؟ .. (البقشيش) ؟ ..

— كلا .. أريد أن لا تطلب إلى شيئاً بعد ذلك .. إياك أن تطلب قليلاً من التلج .. إن

طلبت قليلاً من التلج فلن آتى لك بطلبك ..

— اطمن .. : لن أطلب اليك شيئاً .. أبداً .. لا (تلج) ولا (سيفون) .. وأقبلت

على الكأس ..

لكنه استوقفنى أيضاً ، وغافلنى وحمل الكأس وجرى قليلاً . ثم ضحك ضحكة صيانية وقال

فى نبرة ملائكية :

— سأعذبك ..

غير أنى لم أسمع ولم أر ولم أدرك الا شيئاً واحداً : انه حمل الكأس وابتعد ، فارتجفت وصحمت
مدفوعاً بالرغبة والظماً . .

— هات الكأس يا جرسون . .

فاقترب به من شفتى . . وقال بنفس الصوت الموسيقى المذبذب . .

— سأعذبك !

— هات الكأس يا جرسون ! !

— سوف تلذنتى . .

— أنا ؟ ؟ ؟

— سوف تمقتنى . .

— أنا عبدك . .

— سأعذبك . .

— هات الكأس . .

— خذ !

ومضى عام :

— يا جرسون . يا جرسون !

— ماذا تريد ؟

— الثلج . . فى الحال . . الثلج !

— لقد أنذرتك

— أرجو منك . . قطعة واحدة من الثلج !

— قد أنذرتك

— قطعة . . ولك ما تريد . .

— عند النجوم ماتروم !

— لا تبعد ! . . لا تهزأ بى لن تتركنى قبل احضار الثلج

— عند النجوم ماتروم !

— لقد خدعتنى . . ما كنت أظن طفلاً بريئاً جميلاً يجرؤ على هذه الجريمة : يقدم الى بدل ماء

الورد ماء النار !

— الورد والنار . . يالك من غرساذج ! . . الورد والنار هما عنصرى حياتى . وهما لون خدودى

ولون شرايى !

— قطعة من الثلج . . ولك ما شئت !

- محال ... !
- رحماك !
- لو كنت عاقلاً لادركت أن النايح ليس في عهدتي
- لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟
- سل صاحب القهوة ..
- أنقذني .. لعنة الله عليك ..
- الثلج لا يمكن أن يكون في عهدتي ..
- آه ياملعون !! وما العمل ؟
- عليك بجرسون آخر ؟
- جرسون آخر .. من ؟ من ؟
- (يجري « الحب » الى « الشيطان » وبسر اليه كسلاً .. ثم يشير بيده الى « الزبون » ثم يتقدم « الشيطان »)
- أنا .. هو .. ما طلبك ؟ .. أنا القدير على تنفيذ رغبتك .. مرني أطع أيها السيد النبيل !
- الشيطان !!
- خادمك . . . — كلا مستحيل أنت من أرباب السوابق
- مظلوم ! .. وربك لم يثبت ضدى شيء . لا تصدق وشايات الناس . وربك إنى متهم زوراً وبهتاناً
- ما الدليل على براءتك ؟
- هالك .. رخصتي .. بيضاء كقلب الجنين .. !
- أليست .. مزورة .. ؟؟؟ على كل حال أنا في حاجة اليك الآن ! انى فى حاجة شديدة اليك .. أسمع ؟
- محسوبك ..
- .. الحب .. هزأ بى .. انتقم لى ..
- آسف ! والله ! الحب زميلى وليس لى سلطان عليه ..
- ما العمل اذن ؟ .. — دع الانتقام .. وفكر فى الدواء ..
- الدواء .. الثلج .. قطعة من الثلج .. اذن ! !
- الثلج ليس بالدواء .. الدواء هو ..
- هو ! ! هو ماذا ؟ — هو الدواء .. ودأوها بالتى كانت هى الدواء ..
- ماذا تعنى .. ؟ — أطلب من « الحب » كأساً أخرى !

— ومن ادراك ؟ ربما هذه المرة !
— اخرس . يا صافق .. دوائى الثلج .. وأنا أدرى الناس بدوائى .. أعطنى قطعة من الثلج ..
أسرع بالثلج ..

— الثلج ليس في عهدتي . . — كيف ذلك . . كيف ذلك ؟ . .

— أدلك على « جرسون » آخر .. وأوصيه بك خيراً .. فلطالما أوصيته عند اللزوم
بزبائننا الكرام ..

— من ذا الذي يطلبني ؟ — الموت !!! آه .. لا ، لا ، لا .. لا .. أبداً ..

— لا تسئل فی وجهی .. أغرب عني ..

الافيون .. نعم .. ها .. حا .. حا .. الاتحب تعاطي الافيون ؟

— والتلج .. الا تطلب الثلج .. هو في عهدتي ألا تريد؟؟ ..

— في عهدتك ؟؟ .

— في عهدتي دائماً ؟ .. من يوم (نزولي الخدمة) بهذه القهوة ..

— كلا لا تقرّني .. قلت لك .. لا تقرّني . أستودعك الله . ا

— إلى أين؟ حـا . حـا .

— ابتعد عني .. انت لا تطاق .. رائحتك كريهة ..

— والثليج .. حا .. حا .. ألا تطلب ثلجاً .. ابيض .. تعال لا تخف .. تعال .. ثلجاً

ابيض مثل السكف !!

— النجدة .. النجدة .. الى يا جرسون «حب» يا جرسون «شيطان» باصاحب القهوة ..

انقذوني من هذا الجرسون الفظيع .. كل شيء يطاق الا هذا الجرسون البارد الفظيع ..

حديث قطين^(١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام في موضوع الانشاء ما يأتي :
« تقابل قطان أحدهما تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله .
فإذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، وإلى أي غاية ينصرف القول في محاورتهما ، وضاقوا جميعاً - وهم أطفال - أن تكون في رموسهم عقول السنابير ، وأعيانهم أن تنزل غرائزهم الطيبة في هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة . فيكتبونها تدبير هذه القطاط لحياتها . وينفذوا إلى طبائعها . ويندجوا في جلودها .
ويأكلوا بأنيابها . ويمزقوا بمخالبها

... إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خالق هر تين . لا الحديث عنهما . فإن اجادة الانشاء في مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السوى الجليل نابضاً حياً كأنما وضعت في الكلام قلب هر ، أو جاءت باهر له قلب من الكلام . وأين هذا من الاطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولهما ؟ وكيف لهم في هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود . ويدخلوا أسرار الخليقة . ويصبحوا مع كل شيء رهناء بعلمه ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية : « كن زهرة وصف واجعل نفسك حبة قمح وقل » . وإنما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ، إذ النبي تعبير إلهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتتطرق به كلماتها التي تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير . تتخذه تلك الحقيقة لتتلقى منه الكلمة التي تسمى الفن

وقد كان في القديم امتحان مثل هذا . لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة . وكان الممتحن فيه هو الله جل جلاله . والموضوع حديث النمل مع النملة . والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملة : يأبها النمل ادخلوا مساكنكم . لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها »

(١) اخترناها له . . .

إن السكون كله مستقر بمعانيه الرمزية في النفس السكاملة . إذ كانت الروح في ذاتها نوراً . وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجرى في الشعاع كما يجرى الماء في الماء . وفي امتزاج الاشعة من النفس والمادة تجاوب روحاني هو بذاته تسير في البصيرة وإدراك في الذهن . وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه : في الكلمة والصورة والمثال والنخبة ، أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى

ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتم إشراقاً إلا بتهام النفس البليغة في فضيلتها أو رذيلتها على السواء . فان من عجائب السخرية هذا الإنسان أن يكون تمام الرذيلة في أثره على العمل الفنى — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة في أثره على هذا العمل . والنقطة التى ينتهى فيها العاوى من محيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلى السفلى . ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق حتى قال علماءنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله وبلاغة الأداء وروعته . ولا يكون السؤال الفنى ما هى قيمة هذه النفس . ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ اليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن . كما للجنة حق فى نوابغه . وإذا قالت الجنة : هذه فضائل البليغة أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائل ؟ وكيف لصرى يستطيع ابليس أن يؤدى عمله الفنى . . ويصور بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل . وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟

لقد بعدنا عن القطين . وانا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما
كان القط الهزيل مرابطاً فى زقاق . وقد طارد فأرة فأنجحرت فى شق . فوقف المسكين
يتربص بها أن تخرج . ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزها . وما عقل الحيوان إلا من حرفة
عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرج عن نفسه بأن
يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض . لا كاطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم
وأبصر الهزيل من بعيد فاقبل يمشى نحوه ، وراه الهزيل وجعل يتساءله وهو يتخلع تخلع
الأسد فى مشيته وقد ملأ جلده من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ،
وانقلبت فى لحمه غلظاً ، وفى عصبه شدة ، وفى شعره بريقاً ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية
ويكاد إهابه ينشق سمناً وكدنة . فأنكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمراى
هذه النعمة مرحلة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً منقبضاً
طاوى البطن ، بارز الاضلاع ، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى
آخر . فقال له : ماذا بك ؟ ومالى أراك متيبساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ! ومالك أعطيت
الحياة غير أنك لم تحى ! أليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد . فمالك - ويحك - رجعت

صورة مخزلة من الهر! أفلا يسقونك اللبن ويطعمونك الشحمة واللحمة ويأتونك بالسّمك ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ويفتقون لك الخبز في المرق ويؤثرك الطفل ببعض طعامه وتذللك الفتاة على صدرها وتمسحك المرأة يديها ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه؟ وما لجلدك هذا مغبراً كأنك لا تلمسه بلعابك ولا تتعشده بتنظيف. وكأنك لم تر قط فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقاً في شعره أو شعرها فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما! وأراك متزايلاً الأعضاء متفككاً حتى ضعفت وجهت. كأنه لا يركبك من حب الزوم على قدر من كسلك وراحتك. ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهيتك. وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشية ولا وسادة ولا بساطاً ولا طرازاً. وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والحشيم اليابس. فما له من لحم يحى من لحم ولا دم يكون من دم. وانحط فيه جسم الأسد وسكنت فيه روح الحمار!

قال الهزبل: وإن لك لمة وشحمة ولبناً وسمكاً وجبناً وفتناً. وإنك لتقضى يومك تلطع بجلدك ماسحاً وغاسلاً. أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً وتمتدداً. أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً. ووصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة. وأحكمت طبعاً ونقضت طباعاً. وربحت شعباً وخسرت لذة. عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك. وحلوك وأعجزوك أن تستقل. وقد صرت معهم كالدجاجة تسمن لتذبح. غير أنهم يذبحونك دلالاً وملالاً.

إنك لتأكل من خوان أصحابك. وتنظر إليهم يأكلون. وتطمع في مؤاكلتهم. فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شيء غير هذا. وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها. إن كان أول ما في الحياة أن تأكل فأهون ما في الحياة أن تأكل. وما يقتلك شيء كاستواء الحال ولا يحبك شيء كنفوتها. والبطن لا يتجاوز البطن. ولذته لذته وحدها. ولستكن أين أنت عن إرثك من أسلافك. وعن العلل الباطنة التي تحركنا إلى لذات أعضاءنا ومتاع أرواحنا. وتهينا من كل ذلك وجودنا الأكبر. وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله لا من قبل المعدة وحدها؟

قال السمين: تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة. وأراني بازائك معدوماً بزوال أسلافي مني. وأراك بازائي موجوداً بوجود أسلافك فيك. ناشدتك الله إلا ما وصفت لي هذه اللذات التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع. وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى؟

فقال الهزبل: انك ضخم ولكنك أبله. أما علمت - ويحك - أن المحنة في العيش هي فكرة وقوة. وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة. وأن لذة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب. وسعار الجوع هو الذي يجعل في الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح. وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة. فان رغباتنا لا بد لها أن تجوع

وتتخذى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا . ليوجد كل منهما حياته فى الحياة . والأمور المظلمة كمنه التى أنت فيها هى للحياة أمراض مظلمة . فان لم تنقص من إنتها فهى ان تزيد فى إنتها . وسر السعادة أن تكون فىك القوى الداخلية التى تجعل الأحسن أحسن مما يكون . وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو . وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصور من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ إنك كالأسد فى القفص ، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة فى جلد . أما أنا فأسد على مخالي ووراء أنيابى . وغىضتى أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً . وان الحرية لتجعلنى أتنعم من الهواء لذة مثل لذة الطعام . وأستروح من التراب لذة كلذة اللحم . وما الشقاء الا خلطان من خلال النفس : اما واحدة فان يكون فى شريك ما يجعل الكثير قليلا . وهذه ليست لمثل ما دمت على حد الكفاف من العيش . واما الثانية فان يكون فى طمعك ما يجعل القليل غير قليل . وهذه ليس لها مثل ما دمت على ذلك الحد من الكفاف . والسعادة والشقاء طالحق والباطل . كلها من قبل الذات . لا من قبل الاسباب والعلل . فمن جاراها ساعد بها . ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى ولقد كنت الساعة اختل فأرة انجحرت فى هذا الشق فطعمت منها لذة وان لم اطعم لحماً . وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عقرى فاحدث لى وجعاً . ولكن الوجع احدث لى الاحتراس . وسأغنى الآن هذه الدار التى بازائها فاية لذة فى السلة والخطفة والاستراق والانتهاج ثم الوثب شدا بعد ذلك ؟ هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة او جرد ، او ادركت يوماً فرحة النجاة بعد الروغان من عابث او باغ او ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هولىك طفل بالضرب فهولته انت بالعض والعقر ففر عنك منهزماً لا يلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذات كلها وانا لا ادرى ؟ هلم انوحش معك . ليكون لى مثل نورك ودهائك واحتياك . فيكون لى مثل راحتك المكدودة ولذتك المتعبة وعمرك المحكوم عليه منك . وسأتصدى معك للرزق اطارده واوائبه . فقطع عليه الهزىل وقال : يا صاحى ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة اسرك . فلا يلقانا اول طفل الا هوى لك فاخذك اسيراً وهوى على بالضرب لا نطلق حراً فانت على نفسك بلاء وانت بنفسك بلاء على وكانت الفأرة التى انجحرت قد رات ما وقع بينهما . فسرهما اشتغال الشر بالشر .. وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة فوثبت وثبة من ينجو بحياته . ودخلت فى باب مفتوح ولحقها الهزىل كما تلحق الدين برقاً او مض وانطفأ . فقال للسمين : اذهب راشدا . فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة ان الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق . وكذلك امثالك فى الدنيا . هم بالفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الاسفل . .

☆ المدنية المصرية القديمة

ومسلك المدنيتين اليونانية والرومانية معها

هي الاصل فيهما ، ولكنهما تجاهلتاها

بقلم الاستاذ عبد القادر حمزة

كل الذين قرأوا شيئاً من الفلسفة العربية يعرفون أنها كلها تقريباً منقولة في الاصل عن الفلسفة اليونانية ، وأن القليل الذي لا يكاد يذكر منها هو الذي نقل عن الحكمة الهندية والحكمة الفارسية . كما يعرفون أن العرب كانوا في هذا النقل مثلاً عالياً لصفتين شريقتين هما الصراحة والامانة . فأما الصراحة فهي أن العرب لم ينتحلوا شيئاً ليس لهم بل نقلوا الفلسفة اليونانية معزوة كل كلمة منها الى صاحبها ولم يدعوا لأنفسهم إلا الشيء الذي زادوه عليها . وأما الامانة فهي أنهم بذلوا جهداً كبيراً في تحري الدقة والتوسع في جميع ما نقلوه ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لا تعرف في أوروبا في العصور الوسطى وفي أول عصر النهضة Renaissance إلا في الكتب العربية ، ولم تدرس في كتبها اليونانية إلا بعد ذلك

وللرئيس ابن سينا كتب عديدة كلها ترجمة لآراء الفلاسفة اليونانيين وخاصة آراء أرسطو الذي يسميه العرب « المعلم الأول » . ولابن رشد عشرات من الكتب كلها كذلك ترجمة لآراء أرسطو وما نخص بالذكر هنا ابن سينا وابن رشد إلا لأنهما أكبر فلاسفة العرب ، والا فالحقيقة أنك لا تجد واحداً من الذين اشتغلوا بالفلسفة في العرب إلا ومن محصوله العلمي نقل عن هذا أو ذاك من فلاسفة اليونان . وكتب ابن رشد عن أرسطو هي التي نقلها بعض تلاميذه — بعد أن نكبه المنصور — الى أوروبا فترجمت فيها الى اللاتينية ومنها عرف الاوربيون في ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه . فاستمروا يدرسون فيها هذه الآراء زمناً طويلاً الى أن اهتموا بعد ذلك الى كتب أرسطو في لغته ومعنى هذا أن المدنية العربية حملت الفلسفة اليونانية في جوفها معزوة الى أصحابها حتى أدتها بعد ذلك الى المدنية الاوربية . فكانت في هذه التأدية ، كما قلنا ، مثلاً عالياً للصراحة والامانة ، وكانت خدمتها للمدنية اليونانية لا تقدر . ولسنا ندري ما الذي كان يحدث لو أن المدنية العربية كانت غير صريحة ولا أمينة فنقلت ما نقلته عن أرسطو وأفلاطون وسقراط وسولون وأرشميدس وغيرهم فلم

تعززه اليهم ولم تذكر أسماءهم بل ادعته لنفسها وصاغته صياغة أخرى مبالغة منها في إخفاء المصادر التي أخذت عنها . لسنا ندري حينئذ هل كانت المدنية الحديثة تعرف الفلاسفة اليونانيين كما تعرفهم الآن وتعرف كل واحد منهم بأثره ، او كانت تجهلهم فلا يبقى مذكوراً منهم ومن آرائهم الا شيء مبهم كالذي يذكر الآن عن حكماء المدن القديمة الفارسية والكلدانية والهندية والصينية وغيرها !

وانما نقول هذا لانه كان قد جاء وقت طويت فيه أسماء الفلاسفة اليونانيين وطويت فيه كتبهم حتى في اليونان نفسها . وما تنبه الاوربيون اليهم إلا بعد ان اطلعوا على الكتب العربية مترجمة الى اللاتينية ، فلو أن هذه الكتب لم تذكر الفلاسفة اليونانيين ولم تنقل آراءهم نقل صراحة وامانة لكانت النتيجة أن يتأخر على الاقل تنبه الاوربيين اليهم مائة سنة أو مائتين أو أكثر . ولا يعلم أحد ما يمكن حينئذ أن يعصب كتبهم في هذا الزمن ، فقد كان ممكناً أن تذهب الحوادث بجزء منها أو بها كلها كما ذهبت قبل ذلك بعلوم المصريين

ذلك ما فعلته المدنية العربية مع المدنية اليونانية . والان فلنرجع الى الحلف قليلا ولننظر ماذا فعلته المدنيتان اليونانية والرومانية مع مدنية سبقيهما هي المدنية المصرية بقدر بعض الباحثين الزمن الذي استمرت فيه المدنية المصرية من وقت نشوئها في عهد الملك مينا الى أن انطفأت آخر شعلة من نورها على يد الرومانيين ، بنحو أربعة آلاف سنة . ويرى الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة المصرية » أن التقدير الصحيح يجب أن يكون أكثر من هذا لان هذه الاربعة آلاف سنة تتبدى من وقت يقول التاريخ ان مصر فيه كانت عزيزة الجانب ، وتدل آثاره التي ما تزال باقية على أن المصريين فيه كانوا أهل علم راق وصناعة راقية ، ولا يقبل العقل أن يكون هذا العلم وهذه الصناعة قد وجدا فجأة ، فلا بد لهما من زمن تدرجا فيه بعد ان تمهدت لهما الاسباب . واذن يكون هناك في رأى جوستاف لوبون عصر من المدنية المصرية سابق على العهد الذي نعرفه مبتدئاً بحكم الملك مينا . وهو عصر جهلاء لان التاريخ لم يحدثنا بشيء من أخباره

وكما كانت المدنية المصرية طويلة العهد ، كانت طويلة الاحتضار حتى لقد شهدت في احتضارها هذا مدنتين : احدهما المدنية اليونانية من نشوئها الى نضجها الى سقوطها ، والثانية المدنية الرومانية من نشوئها الى بلوغها الاوج على يد يوليوس قيصر . وكانت النكبات التي حلت بها والحروب والغزوات التي عانتها وحوادث النهب والتدمير والاحراق التي تناولتها عديدة طويلة ، لم تقض فقط على مدنيتهما بل قضت فوق ذلك على العلوم التي قامت بها هذه المدنية . ثم تبدلت لغة المصريين بعد هذا فانقطعت الصلة بينهم وبين ماضيهم ، ثم نسيت اللغة القديمة حتى ماتت ولم يبق من يعرفها فانقطعت الصلة بين العالم كله وبين المدنية المصرية وعلومها ، ولم يبق من هذه المدنية غير آثارها يراها الناس فيحكمون بانها كانت مدنية علم راق ولكنهم لا يعرفون من هذا العلم شيئاً

ومع أننا عرفنا الآن اللغة المصرية القديمة فاننا لم نقف على شيء يستحق الذكر من علوم المدنية

المصرية . وقد قال الدكتور جوستاف لوبون في ذلك : « لم يؤلف كتاب عن مصر الا وفيه اطراد عظيم لمعارف المصريين . ولكن اذا اريد تجديد مدى هذه المعارف بالدقة أعوزت المصادر والمستندات . فالأكتفاء ببعض صحف امر لا بد منه لان الكتابة المستفيضة في علوم المصريين تقرب من الحال » .
ثم قال في موضع آخر : « لم يبق لنا من علوم المصريين الا ما دون في اثنتين او ثلاث من ورق البردي ، وهو بسط لمبادئ أولية يرجح أنها كانت للتعليم في مدارس الاطفال . ولكننا اذا حكمنا على علم المصريين بآثاره ونتائج لم يسعنا الا ان نقول انه كان بالغاً للغاية القصوى في التقدم »

فعلم المدينة المصرية غير معروفة . والعلماء والمفكرون في هذه المدينة التي سادت العالم أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، والتي استمر احتضارها عدة مئات من السنين لا يعرفهم الناس كما يعرفون كتاب اليونان وفلاسفتهم كلا منهم باسمه ورأيه والعلم الذي نبغ فيه . واذن نسأل ماهو موقف المدينة اليونانية في هذا وهي التي جاءت تالية للمدينة المصرية ونشأت وقت احتضارها ؟ هل فعلت ما فعله العرب معها فحملت علومها الى الذين يأتون من بعدها أم لم تحمل شيئاً ؟ وان كانت لم تحمل وكانت كتبها قد اغفلت العلوم المصرية والعلماء المصريين اغفالا تاماً فهل ذلك ناشىء من أنها لم تتصل بالمدينة المصرية ولم تستق شيئاً منها أم هي بالعكس اتصلت بها واستقت منها جميع عناصرها الحيوية ولكنها مع ذلك أغفلتها ؟

يمر الانسان بكتب الفلاسفة اليونانيين جميعاً فلا يجد فيها شيئاً يسمى علوماً مصرية وعلماء مصريين ، بل يجد آراء مبسوبة في كل علم وفن على انها ابتكارهم وابتكار مدنينهم لم يستندوا فيها الى شيء سابق . ولم يخالف هذه القاعدة فيما نعلم الا اثنان هما هيرودوت الذي يلقب أبا التاريخ وديودور الصقلي . وهذان مؤرخان عاشا في الزمن الذي كانت المدينة المصرية فيه تحتضر . وقد ألف كل منهما كتباً في التاريخ فكان من الضروري أن يعرضا لمصر . وقد عرضا لها فعلاً ولكن على أنهما مؤرخان يعنهما ذكر الملوك والحروب وشيء من عادات الشعب وأوصاف البلاد الجغرافية ولا يعنهما شيء من العلماء والعلوم

ولهذا فان قارئ مؤلفات نوابغ المدينة اليونانية كارسطو وافلاطون وسولون وفيثاغورث وارشميدس وغيرهم يتخيل أن المدينة اليونانية أول عهد العالم بالعلم الصحيح ، وأن المدينت التي سبقها لم تعرف هذا العلم على أى وجه من الوجوه . ونظن أنه يكفي أن يفكر الانسان قليلاً ليعلم أنه يستحيل أن يكون اليونانيون قد أنشأوا علومهم وفلسفتهم كلها من عند أنفسهم ، ولكن هذا ليس موضوع بحثنا الآن وانما موضوع البحث هو موقف الفلاسفة والعلماء اليونانيين من علوم المدينة المصرية ، وهذا الموقف يتلخص في أنهم اغفلوها ولم يشيروا اليها في شيء مما كتبوه

بقي ان نعرف هل سبب هذا الاغفال أنهم لم يتصلوا بالمدينة المصرية ولم يستقوا من علومها ؟ أم هم بالعكس اتصلوا بها واستقوا منها ولكنهم مع ذلك أغفلوها ؟

تتابع المدنية اليونانية من أول نشوئها فنرى في هذا النشوء رجلين بارزين : أحدهما سولون Solon واضع القوانين والنظم لحكومة أثينا وقد عاش من سنة ٦٤٠ الى سنة ٥٩٩ قبل الميلاد، والثاني تاليس المليطى Thales de Milet أول وأقدم فيلسوف يونانى، وقد عاش من سنة ٦٤٠ الى ٥٥٠ قبل الميلاد . في ذلك الوقت كانت اليونان كالطفل الذى أخذ يجبو أو كالزهرة التى بدأ نباتها يظهر . فأين تعلم سولون وتاليس المليطى ؟ وفي أى المدارس تثقفا وعلى أى الاساتذة تخرجوا ؟

يقول التاريخ الذى لا شك فيه إنهما تعلمتا في مصر في مدرسة عين شمس . وفي ذلك يقول شمبوليون صاحب حجر رشيد بعد كلام عن الذين تخرجوا على الاساتذة المصريين : « .. تعلم بها (أى بمصر) أيضاً سولون وتاليس المليطى كل ما علمه لليونانيين .. »

وتاليس المليطى هذا هو واضع الفلسفة القديمة التى تقول ان اصل الكائنات عنصر واحد بسيط هو الماء ، وهى فلسفة ظلت رائجة حتى جاء امپدكليس Empedocles (٤٩٠ - ٤٣٠ ق. م .) فعارضها وقال بالعناصر الاربعة الماء والهواء والنار والتراب

ندع هذا وننتقل خطوة أخرى فنصل الى فيثاغورس Pythagore (٥٤٠ - ٤٩٠ ق. م) وهو رجل من اهل جزيرة ساموا نبغ في الرياضة والفلك نبوغا سوف يبقى به اسمه خالداً الى الابد . وقد قال بكروية الارض وعالج فهم نظام الكون ، فقال انه على شكل كرة في مركزها النار وان اجراما عشرة تدور حول هذه النار : اولها الارض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحيرة (أى الكواكب السيارة) ثم النجوم الثوابت . وجميع هذه الاجرام تدور حول النار المركزية . فلو انك وضعت في هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيخ التى تعد من اعظم اكتشافات العصر الحاضر

فأين تعلم فيثاغورس هذا وعلى يد من تخرج ؟

اجاب شمبوليون عن هذا السؤال فقال ما يأتى حرفيا : « تعلم فيثاغورس بمصر كل ما استطاع معرفته » وفي الواقع ان التاريخ الذى لا شك فيه يقول لنا ان فيثاغورس تعلم في مصر بمدرسة عين شمس . ولم يستمر تعلمه فيها سنة أو سنتين أو خمسا أو عشراً وإنما استمر اثنتين وعشرين سنة . ثم غادرها بعد ذلك الى ايطاليا وجعل يكتب مؤلفاته فلا يقول فيها ان اساتذته في مصر علموه شيئا وإنما يقول انه هو يرى كيت وكيت

تتقدم بعد ذلك خطوة أخرى فنصل الى ديمقراطيس Democretie في القرن الخامس قبل الميلاد . وهو أحد الفلاسفة المعدودين وأول من عارض القول بان المادة قابلة للتجزئة الى مالا نهاية له وقرر وجود الجزء الذى لا يتجزأ أو ما سمي في الفلسفة العربية الجوهر الفرد

فأين تعلم ديمقراطيس هذا وعلى يد من تخرج ؟ تعلم في مصر كما تعلم زملاؤه السابقون وتقدم خطوة أخرى أيضا فنصل الى أفلاطون Platon (٤٢٩ - ٣٤٧ ق. م .) كبير فلاسفة

اليونان واستاذ أرسطو وصاحب الفلسفة المعروفة باسمه والتي مازالت تدرس الى اليوم . قد يقول قائلون انه تلميذ لسقراط Socrate متخرج على يده ، ولكن كلا ، فان أفلاطون لم يلزم سقراط إلا بعد أن كان قد تعلم وصار جديرا بان يسمى زميلا له لا تلميذا . أما البلاد التي تسلم فيها فهي مصر ، وأما المدرسة التي علمته فهي مدرسة عين شمس ، وقد قال شمبوليون في ذلك : « إننا نعرف اسماء الاساتذة الذين تلقى عليهم أفلاطون بمصر علمه في مدرسة هليوبوليس »

فأفلاطون تلميذ مصر لا تلميذ سقراط ، وقد كتب مؤلفات تعد بالعشرات ولكنه لم يذكر منها شيئا عن علم عرفه في مصر ولا عن أساتذة عرفهم من المصريين

وخطوة أخرى فنصل الى ارشميدس Archimedes (٢٨٧ — ٢١٢ ق.م .) أكبر المكتشفين الرياضيين في المدنية اليونانية ومخترع المنجنيق ، والآلات الرافعة للثقال ، والطنبور ، والمرايا المحرقة التي يقال انه احرق بها الاسطول الروماني عندما كان يحاصر وطنه سرقوسة . هو أيضا تعلم علمه كله في مصر ، ولكن في مدرسة الاسكندرية . ونلاحظ أن المدنية اليونانية كانت في ذلك الوقت قد بلغت أوجها فأخرجت أفلاطون وارسطو ومع ذلك لم يقصد اليها ارشميدس ليتعلم فيها وإنما قصد الى مصر

واذ قد ذكرنا مدرسة الاسكندرية فان هذه الكلمة الموجزة لا تتسع لذكر أسماء العشرات من العلماء اليونانيين الذين تخرجوا فيها . فلا محيص لنا من أن نكتفي بالإشارة الى بعض البارزين منهم . فمن هؤلاء أقليدس Euclid المعروف عند العرب باقليدس الصوري وهو صاحب كتاب « الاصول » الذي ترجمه العرب والذي يعتبر أساسا للهندسة . وابلونئوس Apollonios صاحب كتاب « المخروطات » الذي ترجمه العرب وهو من الاسس في علم الهندسة أيضا . وبطليموس Ptolémée الذي يسميه العرب ببطليموس القلوزي ، وهو عالم رياضي وفلكي الف كتاباً وصف فيه السماء وآلات الرصد ومساحة المثلثات المستقيمة الخطوط ، وقد ترجمه العرب ومنه صنفوا كتاب « المجسطي » الذي كان مادة الدراسة في جامعات أوروبا في العصور الوسطى . وأيروتستين Eratosthenes وهو أول من قاس محيط الكرة الأرضية بواسطة قياس الدرجات بين الاسكندرية واسوان فوجده ٤٢ ألف كيلو متر وهو غير بعيد من الحقيقة . وايرخس Hipparchis المشهور بخريطته التي وضعها للنجوم . وتسبيوس Ctesibius مخترع السيرون والمضخة السكبسة ومضخة الحريق . وهيرون Heron أول مفكر في صنع الآلات البخارية وقد صنع آلة منها فعلا . واريستارك Aristarque de Samos أول القائلين بان الارض كوكب من كواكب النظام الشمسي وان الشمس مركز تدور حوله الكواكب الاخرى . وتيوفراست Théophraste الذي يعتبر أول واضع لاساس علم النباتات فهذه كما ترى سلسلة طويلة من العلماء اليونانيين جاءوا كلهم مصر فدخلوا مدارسها وتعلموا علومها وكانت هذه العلوم هي التي جعلت منهم بعد ذلك علماء وفلاسفة . فليس لقائل أن يقول ان

اليونانيين لم يتصلوا بالمدينة المصرية وانهم من أجل ذلك أغفلوها . اذ الحق انهم لم يتصلوا بها فقط وانما استقوا منها كما استقى منهم العرب بعد ذلك . فلو انهم فعلوا ما فعله العرب معهم فحملوا العلوم المصرية في كتبهم معزوة الى أصحابها والمبرزين فيها لانتقلت منهم الى العرب ثم من العرب الينا بعد ذلك .
نتقل الآن إلى المدينة الرومانية لنترى كيف كان مسلكها نحو العلوم المصرية . نشأت المدينة الرومانية في الوقت الذي كانت فيه المدينة المصرية تلفظ نفسها الأخير . ويقول بعض المؤرخين ان الحرائق التي أشعلها يوليوس قيصر في الاسكندرية هي التي دمرت مكتبتها الكبيرة التي كانت تحوى من اوراق البردى ما يشتمل على كل علوم المصريين ، وينفى الاستاذ برشيا الآن هذه التهمة عن يوليوس قيصر في كتابه الذي وضعه منذ سنوات عن الاسكندرية وتاريخها . ولسكن الذي يهنا هنا هو أن المدينة الرومانية وان كانت قد نشأت في الجزء الأخير من عهد المدينة اليونانية الا أن نشوءها هذا شهد اختصار المدينة المصرية وشهد على الخصوص مدرسة الاسكندرية

ولما بلغت المدينة الرومانية أوجها كانت مدرسة الاسكندرية قد دمرت وكانت دور الكتب المصرية قد أحرقت وكانت اللغة المصرية نفسها قد دخلت في دور الاختصار

ولم يكن اتصال المدينة الرومانية بالعلوم المصرية وثيقا كما هو الشأن مع المدينة اليونانية . ولكن مما لا شك فيه أن الرومانيين كانوا ينظرون في ذلك الوقت الى مصر باعتبار انها بلد العلم والحضارة ، وكانوا يرون مجدها كانه لا يزال حاضرا أمام أعينهم فلا يقبل العقل الا انهم اخذوا منها واقتدوا بها في تأسيس مجدهم اساسه العلم والحضارة

وقد كان القانون الروماني من اعظم مخلفات المدينة الرومانية من العلم اذا لم نقل انه اعظمها جميعا ، فانظر ما يقوله فيه الاستاذ ريفيو (١) احد العلماء الذين كتبوا عن مصر . قال : « ان كل ما يسمى قانونا في وصايا الالواح الاثني عشر انما اخذ من قانون مصر . فحقوق الافراد وحقوق الامم التي يتكلم عنها المشرعون الرومانيون وحق المدينة لم تكن من مخترعات عقولهم بل من الحقوق التي وضعت من قبلهم . والمستندات الكثيرة والنصوص والوثائق القضائية التي وصلت اليها من مصر وكلدة تدل على ان المصريين والكلدانيين هم الذين ابتدعوا تلك القوانين من آلاف السنين ، عدا انهم اساتذة الاغريق واثمتهم وقدوتهم في كل امور المدينة »

ومن هنا يمكننا ان نعرف ان مسلك المدينة الرومانية مع العلوم المصرية لا يختلف عن مسلك المدينة اليونانية

وهذا المسلك يتلخص في ان هاتين المدينتين اتصلتا بالمدينة المصرية واخذتا من علومها كل عناصر حياتهما ولكنهما تجاهلتاها . وبحسبنا ان نكون قد اثبتنا هذا التجاهل لاننا لا نريد غرضا آخر

(١) نقلنا هذا عن الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة المصرية »

يا زمان !

للهستاف فمير الدين المزرعكي

متى ترى ، تبسم لي ، يا زمان ؟
ألا حنان !
أسلمتني ، لا أنس لي ، لا أمان ،
للحدثان !
عيناي - لما تبرحا - تجريان ،
نضاًختان !
أبكي ربوعاً لا تطيق الهوان ،
رهن امتهان !

أبكي دياراً خلقت للجمال
أبهي مثال
أبكي ثراث العز ، والعز غال
صعب المنال !
أبكي نفوساً قعدت بالرجال
عن النضال !
أبكي جلال الملك كيف استحال
إلى خيال !

مالرحابي ورجساب الرحاب
أضت يباب !

ما لبنِها ، كلهم في اكتاب
أسرى عذاب !
أين أولو طِمانِها والضِراب
أين الحِراب !
ما بالُ شِيبِ عُرْبِها والشباب
غيرَ غِضاب !

ضاعتُ بلادي يا زمان الصِّغارُ
والاندثارُ !
الناسُ بينونَ ، وما في الديار
غيرُ الدِّمار
أما ترى الغربَ تعلّى وطار
فوقَ البحار
وأُمّتى هاوية في انحدار
بئسَ القرار !

يا رَمَنَ الشُّومِ ، سقيتَ الشَّامَ
كأسَ حَمام !
القبلتان اشتكتا ، والمقام !
مما نسام !
الى متى نبقي اسارى انقسام
ونستضام ؟
مصر تناجيك ودار السلام :
مل المقام . . ؟